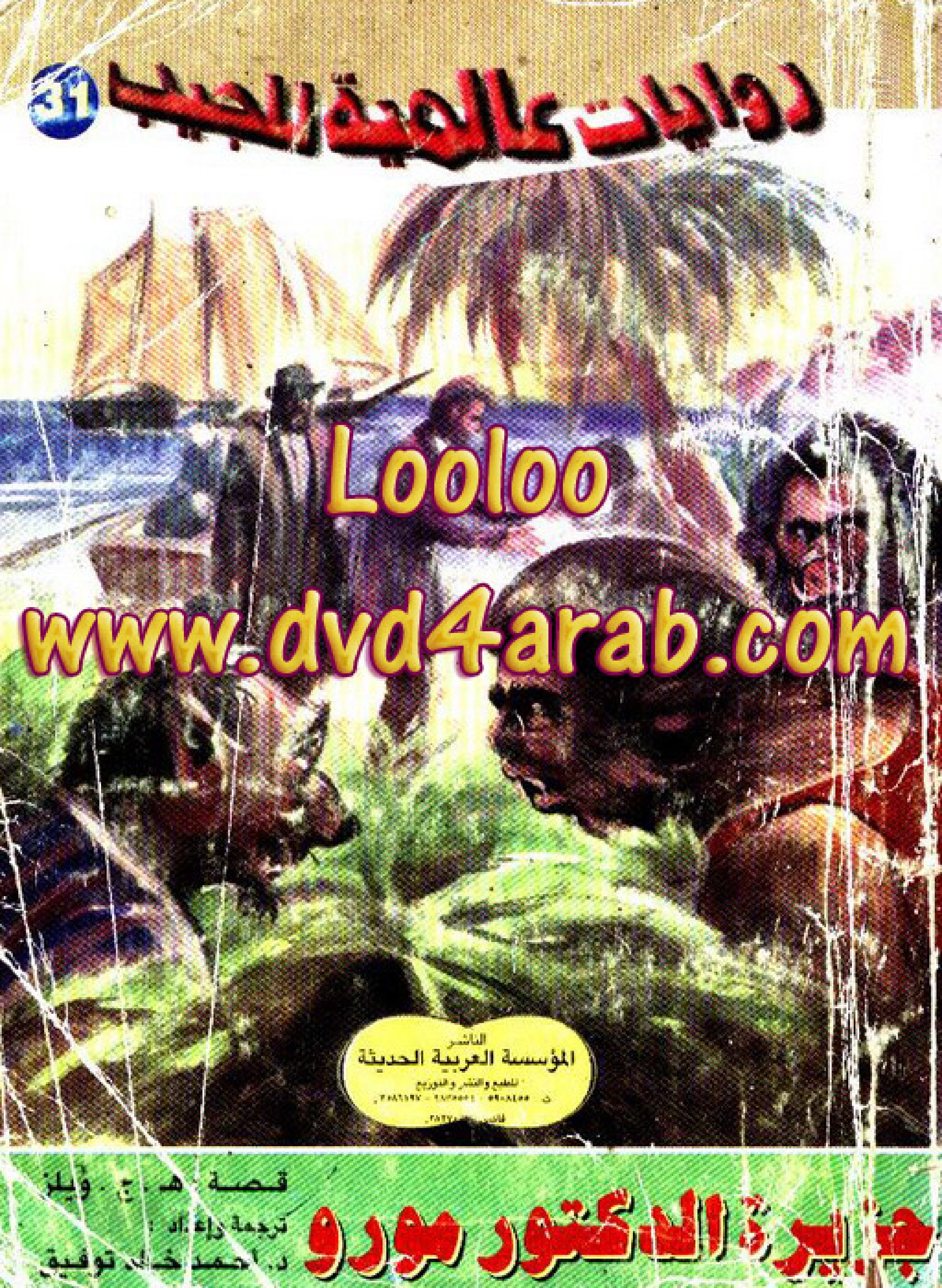

31
روايات عالمية للجيب
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
قصة : هـ . ج . ويلز
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق
جزيرة الدكتور مورو

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدِّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي ، في مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف

هذا هو لقاؤنا الثاني مع الكاتب الإنجليزي العظيم (هربرت جورج ويلز) ..

في صبا هذا الكاتب قذف به أحد الأولاد الكبار في الهواء .. ومن ثمَّ سقط أرضًا وتهشَّمت ساقه . وكان على الصغير أن يرقد في الفراش شهورًا يتلوَّى ألمًا ..

تبدو هذه كارثة .. لكنها بالنسبة لـ (هـ . ج . ويلز) كانت أسعد حوادث حياته ، لأنها أرغمته على ممارسة التسلية الوحيدة للمقعدين قبل اختراع التليفزيون : القراءة .

وكانت نشأة (ويلز) فقيرة للغاية ، بدأ حياته في محل لبيع القماش ـ وهو ما استوحى منه تحفته الروائية (كيبس) ـ ثم في صيدلية .. وفي النهاية فرَّ من هذا الجحيم وكتب خطابًا يستعطف فيه ناظر مدرسته القديمة .. وقبل هذا الأخير أن يُعيِّن (ويلز) معلمًا عنده .

بعد هذا أصيب بثقب فى رئته بعد مباراة كرة قدم عنيفة .. وكان لإصابته الأولى الفضل فى إرغامه على (القراءة) .. أما إصابته الثانية فأرغمته على (الكتابة) ..

خمسة أعوام ظل يكتب فيها ، انتهت بأن حرق كل ما كتب لرداءته ! ثم إنه تزوج وواصل محاولات الكتابة فى حماس غير مسبوق ، إلى درجة إخراج كتابين طويلين كل عام .. وبدأ يرضى عن أعماله تدريجيًا ، ويرضى القراء عنها ..

وفى كتاباته نجد تنوعًا غير عادى فى مجالات اهتمامه .. فهو مولع بعلم الأحياء ، لهذا كتب (مرجع فى الأحياء) عام 1893 .. وهو يعشق الخيال العلمى : (العضوية المسروقة) عام 1895 .. و (آلة الزمن) عام 1895 (جزيرة د. مورو) عام 1896 .. (الرجل الخفى) عام 1897 .. (حرب العوالم) عام 1898 .. (أول رجال على القمر) عام 1901 ، ثم كتب عن المشكلات الاجتماعية (توقعات) عام 1901 .. (كيبس) عام 1905 .. (يوتوبيا الجديدة) عام 1905 .. و (تونى بانجى) و (آنا فيرونيكا) عام 1909

وفى عام 1903 انضم للحركة الفابية (الحركة الاشتراكية التى تدعو للتغيير التدريجى ، والتى كان برنارد شو عضوًا فيها) ..

وفى عام 1911 بدأ خط جديد من خطوط إبداعاته يتمثل فى قصصه : (ميكيافللى الجديد) - (الزوج) - (أصدقاء عاطفيون) - (الزوجة لسير إتراك هارمان) .

وأيد (ويلز) الحرب العالمية الأولى على أساس أنها (الحرب التى ستنهى الحروب جميعًا) . وقاد حمله الدعاية ضد الألمان فى أثنائها ، لكن هذا لم يمنعه - عام 1916 - من كتابة قصة شهيرة هى (مستر برتلنج يتبين الأمر) ، يقر فيها بخطئه ..

بعد الحرب كتب (خلاصة التاريخ) عام 1920 .. ثم (علم الحياة) عام 1929 .. ثم (العمل والثروة وسعادة البشرية) عام 1932 .. كان يبشر بعالم واحد متكامل يبعد شبح البربرية والعدمية ..

وفى عام 1934 كتب قصة حياته وسمّاها (تجربة فى الحياة) .

وجاءت الحرب العالمية الثانية لتفقده إيمانه بالجنس البشرى الذى فقد التحكم فى ذاته ، ومشى بخطىً حثيثة نحو الهلاك ..

وتوفى العبقرى عام 1946 بعد ما أثرى الأدب العالمى بقصص ومقالات لا تنسى .. ربما لم تكن عميقة كلها .. لكنها بالتأكيد فائقة الإمتاع .

★ ★ ★

قصة اليوم هى نموذج لأدب الخيال العلمى عند (ويلز) ، ولسوف نتبين سريعًا أن هذا الأديب يكتب الخيال العلمى ، ليعبّر عن آرائه الفلسفية وانطباعاته الاجتماعية فى حرية .. إن (ويلز) منبهر بالعلم ، لكنه يهابه .. يحترمه ، لكنه يرتاب فيه ..

ولسوف نرى أنه متأثر بالمذاهب العلمية والفكرية التى سادت (أوروبا) فى تلك الحقبة ، وله اهتمام بنظرية (داروين) فى الارتقاء ، وأوضاع الطبقة العاملة المطحونة فى عهد الثورة الصناعية بانجلترا ..

إن هناك فارقًا هائلاً بين (جول فيرن) الفرنسى و (هـ . ج . ويلز) الإنجليزى .. كلاهما كتب فى الخيال العلمى وغدا حجة فيه ، لكن (جول فيرن) ـ

كما رأينا فى (رحلة إلى مركز الأرض) ـ كاتب مُسطّح ، لا يقول شيئًا سوى المغامرة الطريفة التى تحدث لأبطاله .. بينما (ويلز) يقول كل شىء ممكن مما بين السطور وفى السطور ذاتها ، حتى لتعدو رواياته عملاً فلسفيًا شديد العمق ..

بالطبع ـ كما سنعرف من خلال الأحداث ـ كان لابد لـ (جزيرة الدكتور مورو) أن تثير شهية صناع السينما لعمل شىء ما منها ، وقد قدمت لنا السينما الأمريكية ذات الرواية فى فيلمين :

ـ الأول هو (جزيرة الأرواح المفقودة) من إنتاج عام 1932 ، وقام ببطولته (تشارلزلوتون) .. وهو أفضل الفيلمين .

ـ الثانى هو (جزيرة الدكتور مورو) من إنتاج عام 1977 ، وقام ببطولته (بيرت لانكستر) و (مايكل يورك) ، وهو عمل غير متميز .

تعالو نقرأ الرواية معًا ، ونتوقع الكثير من الإثارة ، والكثير من التأمل ، ومسحة رعب لا بأس بها أبدًا .

د / أحمد خالد

مقدمة

فى الأول من فبراير عام 1887 ، فُقدت السفينة (ليدى فين) إذ اصطدمت بحطام سفينة مهجورة وهى عند خط طول (1) جنوبًا وخط عرض (107) غربًا .

وفى الخامس من يناير عام 1888 ، عُثِر على عمى (إدوارد برندرك) ـ الذى سافر على ظهر (ليدى فين) فى (كالاو) واعتبر غريقًا ـ عثر عليه عند خط عرض (5) جنوبًا وخط طول 101 غربًا ، فى قارب صغير ليست عليه كتابة معينة ؛ لكن يعتقد أنه يخصَ السفينة المفقودة (إيبكاكوانا) ..

ولقد حكى عمى قصة غريبة عما حدث له ، حتى أنهم حسبوه قد جُنَ .. وبعد هذا زعم أنه نسى كل شىء منذ لحظة نجاته من (ليدى فين) .

وناقش العلماء النفسيون حالته وقتها كنموذج غريب لفقد الذاكرة بعد معاناة عقلية وجسدية .

وقد وجد الموقّع أدناه ـ ابن أخيه ووريثه ـ هذه القصة بين أوراقه ، لكنها غير مقرونة بأى طلب واضح للنشر .

إن الجزيرة الوحيدة الموجودة حيث تم انتشال عمى هى جزيرة (نوبل) وهى جزيرة بركانية صغيرة زارها (سكوربيون) عام 1891 ، فلم يجد بها سوى بعض حشرات غريبة ، وبعض الأرانب والفئران .

لهذا تظل هذه القصة بلا دليل فى أهم أجزائها ..

فإذا وضعنا هذا فى الاعتبار ؛ لا نجد ضررًا من نشر هذه القصة على الملأ .. وأعتقد أن هذا يتفق مع نوايا عمى .

لقد غاب عمى تمامًا فى البحر ثم ظهر فى المكان ذاته بعد أحد عشر شهرًا ، وبطريقة ما ظل حيًّا طيلة هذه الفترة ..

يقال إن سفينة يقودها قبطان ثمل أقلعت من إفريقيا ، حاملة على متنها (بوما)(*) وحيوانات أخرى فى يناير 1887 ، وكان اسمها (إيبكاكوانا) .. وقد اختفت فى النهاية فى تاريخ يتفق تمامًا مع تاريخ العثور على عمى .

تشارلز إدوارد برندك

القصة كتبها إدوارد برندك

(*) البوما : هى أسد الجبال أو الـ (جاجوار) .

١ ـ فى قارب نجاة (ليدى فين) ..

لا أزمع أن أضيف شيئًا إلى كل ما كُتب عن فقد (ليدى فين) .. فالجميع يعرف أنها اصطدمت بحطام سفينة مهجور بعد ما فارقت (كالاو) بعشرة أيام .. وقد تم انتشال قارب نجاتها وبه سبعة بحارة ـ بعد ثمانية عشر يومًا ـ بوساطة مدمرة صاحبة الجلالة (ميرتل)، وقد صارت قصة معاناتهم معروفة للجميع ..

إلا أننى أنوى أن أضيف للقصة شيئًا جديدًا، ربما هو أكثر إفزاعًا وغرابة .. لقد افترض الجميع أن الرجال الأربعة فى قارب النجاة قد هلكوا .. لكنى أملك خير دليل على أن هذا غير صحيح : فقد كنت واحدًا من هؤلاء الرجال ..

وفى المقام الأول يجب أن أقول إنه لم يوجد قط أربعة رجال فى قارب النجاة .. لقد كان العدد ثلاثة، لو تجاهلنا (كونستانس) الذى شوهد يثب للقارب، لكنه لم يصله قط لحسن حظنا وسوء حظه .. لقد هوى

لأسفل تحت حبال الصارى، فتعلق حذاؤه بحبل لدقيقة .. ثم سقط ورأسه لأسفل ليصطدم بلوح خشبى طافٍ ..

أقول : من حسن حظنا .. ولربما قلت . من حسن حظه كذلك .. لأنه لم يكن معنا سوى برميل ماء صغير وبعض البسكويت المبتلّ .. فقد كان الإنذار فجائيًا ولم يكن القارب معدًا لأية كارثة ..

وفى الصباح التالى حين زال صيب السماء ـ ولم يحدث هذا إلا ظهرًا ـ لم نر السفينة ولا (اللنش) ..

وكان من هربا معى فى قارب النجاة رجلين، أحدهما يُدعى (هلمار) وهو مسافر مثلى، أما الآخر فبحّار لا أعرف اسمه .. لكنه قصير القامة قوى البنية يتلعثم فى الكلام ..

رحنا نمضى فى البحر جائعين، وما لبث أن انتهى ماؤنا فعذبنا ظمأ قاتل لمدة ثمانية أيام كاملة .. ومن العسير على القارئ العادى أن يتخيل تلك الأيام، فليس فى ذاكرته لحسن الحظ ـ أية ذكرى سابقة تتيح له تصوّر الوضع ..

كنا راقدين فى القارب، نرمق الأفق بعيون تزداد

اتساعًا وإرهاقًا كل يوم ، ونلاحظ الوهن الذى يزحف على وجوهنا ..

صارت الشمس عديمة الرحمة ، وصرنا نفكر فى أمور عجيبة لا نفصح عنها لكننا نقولها بأعيننا .. ولم يحدث قبل اليوم السادس أن أعلن (هلمار) عن الشىء الذى نفكر فيه جميعًا .

كانت أصواتنا خشنة جافة لذا قربنا الرءوس لندّخر كلماتنا ..

رفضت الاقتراح بكل قواى وآثرت أن نثقب القارب لنغرق فى الحال أو تأكلنا أسماك القرش .. لكن (هلمار) قال إننى لو قبلت لاستطعنا أن نشرب(*) ..

وفى المساء راح البحار يتهامس مع (هلمار) ، بينما جلست أنا فى مقعد التجديف وفى يدى مطواتى ، برغم أننى لم أكن أملك قوة كافية لاستخدامها .. وفى الصباح وافقت على اقتراح (هلمار) وقررنا أن نلعب القرعة بقطعة عملة ، وكان الاختيار من نصيب البحار ، وما كان ليرضخ بسهولة وهاجم (هلمار) بيديه ..

(*) فى الغالب كان الاقتراح يتعلق بقتل الشخص الثالث والتهامه ، وإن كان هذا الجزء غامضًا فى نص (ويلز) الأصلى ..

زحفت على خشب القارب ، وقررت أن أساعد (هلمار) بأن أمسك بساقى البحار ، إلا أن الأخير تعثر وهوى فوق جانب القارب ومعه (هلمار) .. وسرعان ما غرقا كحجرين ..

أذكر أننى ضحكت على ذلك ، وتساءلت بعدها عن سر ضحكى ..

رقدت على مقعد التجديف لفترة لا أذكر طولها ، وقررت أن أشرب من ماء البحر لأجنّ وأموت سريعًا .

هنا رأيت ـ دون اهتمام كأنما أرى صورة ـ شراعًا يرتفع من خط الأفق نحوى ..

لابد أن عقلى كان شاردًا ، لكنى أذكر كل شىء بوضوح تام .. أذكر كيف تأرجح رأسى .. وكيف تراقص الأفق أمام عينى ..

كنت أدرك أننى ميت .. وخطر لى كم هو مضحك .. إنهم تأخروا هذه الساعات القليلة حتى يجدو جثتى ..

ولفترة لاتنتهى رحت أرقب السفينة المزوَّدة بالمجاديف ، والتى تدور حول نفسها دورة واسعة فى عكس اتجاه الريح ..

لا أذكر أى شىء بوضوح عما حدث بعد ذلك .. ولا أعرف كيف ولا متى رقدت فى القمرة الصغيرة .

ثمة ذكرى مبهمة عن رفعى إلى جانب السفينة .. وذكرى لوجه ملىء بالنمش يحيط به شعر أحمر ينظر لى من علٍ .. وثمة انطباع مستقل لوجه أسمر ذى عينين مروعتين تنظران لى .. لقد حسبت هذا كابوسًا حتى لاقيت الوجه ثانية ..

أظن أنهم صبوا شيئًا ما بين أسنانى لأفيق ، وهذا كل ما أذكره عن إنقاذى ..

٢ ـ الرجل الذى لم يذهب لمكان ..

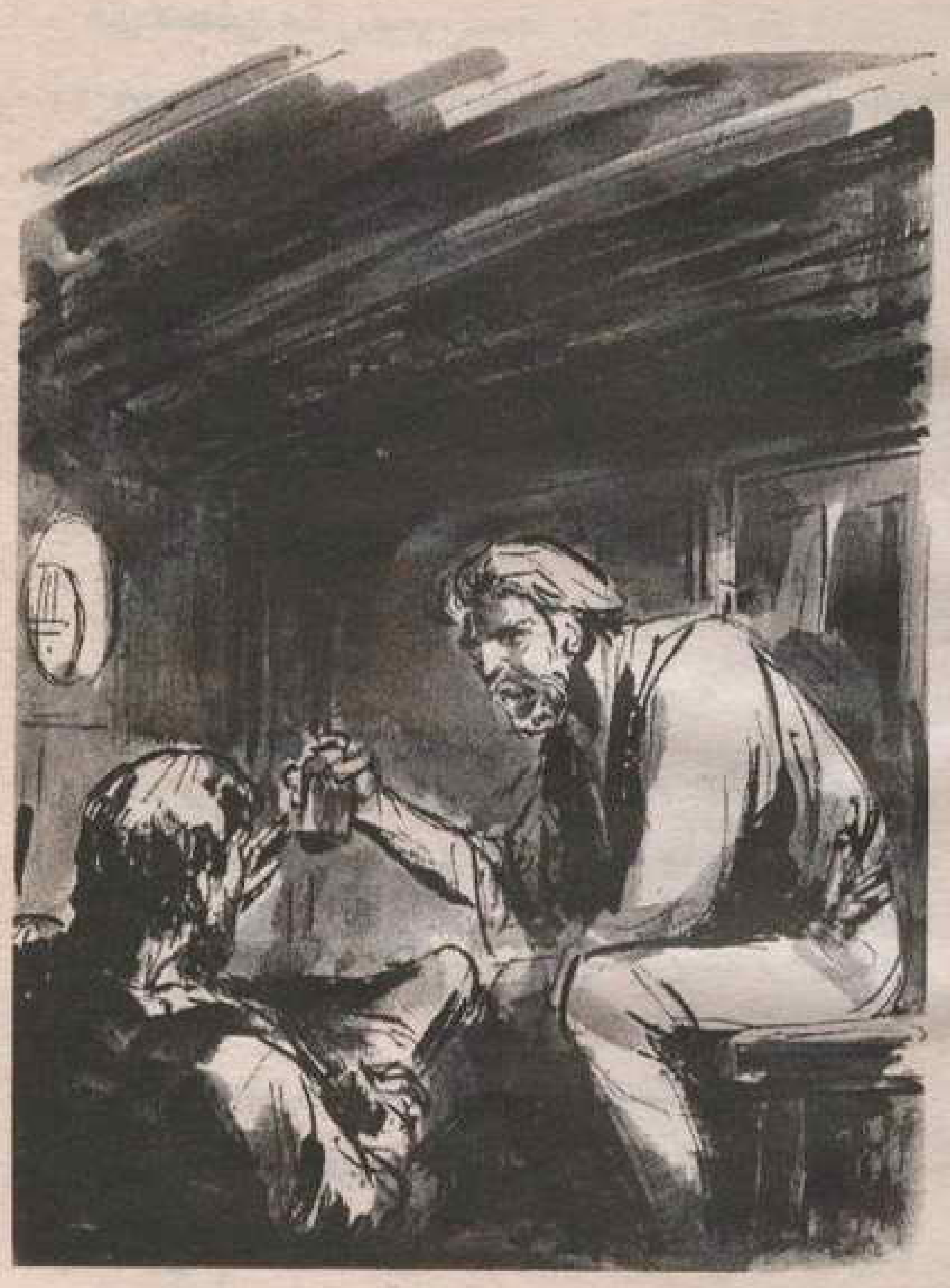
كانت القمرة التى وجدت نفسى فيها صغيرة غير منسقة ، وكان هناك شاب له شعر كالكتان وشارب بلون القش ، وشفة سفلى ساقطة ، يجلس ويمسك بمعصمى .. وللحظة تبادلنا النظرات الصامتة .. كانت له عينان رماديتان خاليتان من التعبير ..

ومن المقدمة سمعت صوت هيكل حديدى يتم طرقه ، وصوت زئير حيوان غاضب ، وفى نفس اللحظة تكلم الرجل :

ـ « كيف تشعر الآن ؟ »

أظن أننى قلت إننى على ما يرام ، ولابد أنه رأى فى عينى السؤال عن الكيفية التى وصلت بها .. قال لى :

ـ « لقد وجدناك تتضوَّر جوعًا فى قارب عليه اسم (ليدى فين) .. وكانت ثمة بقعة دم على أرضية القارب .. »



قدم لى جرعة من قارورة بها سائل أرجوانى ، بدا لى مذاقه كالدم ..

نظرت ليدى .. كانت نحيلة كأنها كيس جلدى متسخ ملىء بعظام مفككة ، وهنا تذكرت ما كان على ظهر القارب ..

قدم لى جرعة من قارورة بها سائل أرجوانى ، بدا لى مذاقه كالدم ، وسمعته يقول واللعاب يساقط من فمه :

ـ « لقد كنت محظوظًا إذ قابلت قاربًا عليه طبيب مثلى .. »

ـ « ما هذه السفينة ؟ »

ـ « هى سفينة تجارية تقلنا من إفريقيا إلى (كالاو) .. وقبطاننا أحمق يُدعى (ديفيز) .. لقد فقد رخصته أو شىء من هذا القبيل .. أنت تعرف هذا الطراز من الرجال .. وهو يسمى هذه السفينة باسم (إيبيكاكوانا) من بين كل الأسماء السخيفة الجهنمية .. وهى تؤدى عملها جيدًا ما دام هناك بحر كثير وريح قليلة .. »

من جديد عاد صوت الزئير ، مع صوت يأمر منبوذًا ما بأن (يكف عن هذا) ..

قال محدثى :

ـ كنت ميتًا تقريبًا .. لكنى وضعت بعض الدواء فى جسدك ، ولسوف تجد علامات الحقن فى ذراعيك » .

هذه المرة كنت أسمع نباح كلاب قادمًا من المقدمة .. سألته شاردًا :

ـ « هل يُسمح لى بطعام صلب ؟ »

ـ « بفضلى يمكنك ذلك .. إن اللحم ينضج الآن .. هناك بعض الضأن .. ويمكنك التهامه .. »

نظر لى وصوت النباح يتعالى .. ثم غادر القمرة ليدخل فى جدل طويل مع واحد لا يفهم ما يُقال ، وكان الآخر يتكلم بلغة يستحيل تمييزها ، ثم سمعت صوت ضربات أو لعلى ظننت ذلك ..

حين عاد إلى القمرة واصلنا الحديث .. حكيت له أن اسمى (وليام بندرك) ، وكيف كنت مولعًا بدراسة التاريخ الطبيعى التى تنسينى حياتى المرفهة الرتيبة .. بدا لى مهتمًا بهذا ، وقال :

ـ « لقد أجريت أنا نفسى بعض تجارب علمية ، ونلت شهادة من الجامعة فى علوم الأحياء .. رباه ! كان هذا منذ عشرة أعوام ، ولكن استمر .. استمر .. »

كان راضيًا عن صراحتى كما هو واضح ، فما إن فرغت حتى راح يسألنى عن شارع (جاور) و (توتنهام) وعن متاجر (لندن) .. فأدركت أنه كان طالب طب عاديًا يرتاد قاعات الموسيقا بلا قيود ..

ـ « كان كل هذا لطيفًا ، لكنى كنت أحمق واستهلكت شبابى قبل سن الحادية والعشرين .. إلا أن الأمور اختلفت الآن .. »

عاد صوت العواء يتردد فوق رأسى .. وبشكل مرتفع ووحشية أثارت هلعى ..

هنا جاء اللحم الضأن تسبقه رائحته الشهية المغرية ، حتى إننى نسيت كل شىء عن صوت الوحش الذى أثار توجسى ..

★ ★ ★

بعد يوم من النوم المتبادل مع الطعام تحسنت كثيرًا .. وفى النهاية استطعت أن أصعد لسطح السفينة لأرى البحار الخضراء تحاول أن تلحق بنا ..

جاء (مونتجمرى) ـ وهو ذلك الرجل ذو الشعر الكتانى ـ فسألته بعض الثياب ، فأعارنى بعض ثيابه الخاصة ..

قال لى : إن القبطان ثمل فى قمرته ، وبدأت أسأله عن وجهة السفينة فقال : إنها متجهة إلى (هاواى) ، لكن سينزلونه هو أولاً .. فسألته :

ـ « تنزل أين ؟ »

ـ « جزيرة .. حيث أعيش .. وعلى قدر علمى لم يكن لها اسم قط .. »

وسقطت شفته السفلى ، فبدا لى غبيًّا إلى حدّ لا يوصف ، وأدركت أنه راغب فى تجنب مزيد من أسئلتى ..

وكنت أملك الحكمة الكافية كى لا أوجه أسئلة أخرى ..

★ ★ ★

٣ ـ الوجه الغريب ..

تركنا القمرة فوجدنا رجلاً يسدّ طريقنا .. كان يقف على الحافة وظهره لنا .. كان ـ على قدر ما استطعت رؤيته ـ قبيحًا جدًّا .. قصير القامة عريض المنكبين له رأس يغوص ما بين كتفيه وعنق مشعر ..

كان يرتدى كنزة زرقاء وله شعر أسود خشن كثّ .. وسمعت الكلاب تنبح بجنون بينما هو يتراجع مذعورًا ، واستدار فى سرعة حيوانية نحوى ..

صدمنى الوجه الذى رأيته بشدة .. كان وجهًا مشوهًا له بروز يشبه خطم البهيمة .. أما الفم المفتوح فيظهر أسنانًا بيضاء لم أرها فى فم آدمى قط .. وكانت عيناه بلون الدم مع قليل جدًّا من اللون الأبيض حول القرنيتين اللوزيتين ..

قال (مونتجمرى) :

ـ « تبًّا لك ! لم لا تبتعد عن طريقنا ؟ »

ابتعد الرجل دون كلمة .. تراجع فى خوف ، وقال :

ـ « لن يسمحوا لى بالذهاب للمقدمة .. »

تكلّم بصوت خشن خافت غريب ..

ـ « وأنا آمرك بأن تذهب .. »

كنت مذهولاً للغاية لشدة قبح هذا المخلوق ، فلم أر قط وجهًا متفردًا منفرًا كهذا ، وفى اللحظة ذاتها شعرت بأننى قابلته من قبل ، وفيما بعد خطر لى أنه الوجه الذى رأيته فى أثناء انتشالى لظهر السفينة .. ربما .. لكن كيف يمكن للمرء أن يرى هذه الملامح الفريدة ، ثم ينسى المناسبة التى رآها فيها ؟

نظرت إلى جانب السفينة ، وكنت مستعدًا تقريبًا لما سأراه بسبب ما سمعت من أصوات من قبل .. أنا لم أر قط سطح سفينة بهذا الاتساخ .. كان مغطى بالجزر والخضراوات .. وإلى جوانب السفينة كان عدد من الكلاب العملاقة المربوطة بالحبال لا تكف عن النباح .. وعند الشراع كانت هناك (بوما) ضخمة محبوسة فى قفص حديدى أصغر من أن يسمح لها بالاستدارة .. وفى المقدمة كانت مجموعة من الأرانب ..

و (لاما) حبيسة فى قفص غريب يشبه الصندوق .. والبشرى الوحيد فى المكان هو بحار صموت يمسك بالدفة .

كانت السماء صافية ، والشمس فى منتصف المسافة نحو الأفق الغربى ، والماء يغلى تحت سطح السفينة المسرعة ..

سألت (مونتجمرى) :

ـ « هل هذه سفينة شحن حيوانات ؟ »

ـ « يبدو كذلك .. »

ـ « وما الغرض منها ؟ أهى للتجارة أم لهواة الغرائب ؟ »

ـ « يبدو كذلك .. »

فجأة سمعنا صرخة قصيرة وألفاظ سباب ، ثم ظهر الرجل المشوه يركض ووراءه رجل أحمر الشعر يضع (كاسكيت) .. بيضاء .. فما إن رأت الكلاب الأول حتى تزايد صراخها وازداد شدّها لسلاسلها ..

وسرعان ما وجه أحمر الشعر لكمة قوية ما بين

لوحى كتفى الشيطان البائس ، فهوى يتدحرج فى القاذورات بين الكلاب الغاضبة .. ومن حسن حظه أنها كانت مكممة ..

لم يحاول أحد أن يساعده .. فقط راح يعوى بصوت لم أسمع مثله قط وهو يتخبط بين أقدام الكلاب ، وقد راحت الأخيرة تبذل قصارى جهدها كى تؤذيه .. رقصة أجساد رمادية فوق جسد مهنك ..

تصايح البحارة مهللين كأنما يرون رياضة ممتعة .. فأطلق (مونتجمرى) صيحة تعجب غاضبة واندفع للأمام عبر السطح ..

ضحك الرجل ذو الشعر الأحمر ضحكة رضا .. هنا جذبه (مونتجمرى) من ذراعه وقال وقد ازدادت لثغته وضوحًا :

ـ « انظر يا قبطان ! إن هذا لا يصحّ »

التفت القبطان أحمر الشعر نحوه ، ورمقه بالعينين الغبيتين لرجل ثمل .. وناعسًا قال :

ـ « ما الذى لا يصح أيها (الحكيم) الأحمق ؟ »

وبحركة مفاجئة حرر ذراعه من يد الطبيب .. وبعد محاولتين فاشلتين استطاع أن يدخل يديه المليئتين بالنمش فى جيبيه ..

قال (مونتجمرى) :

ـ « هذا الرجل راكب عادى .. وأنصحك بالابتعاد عنه .. »

صاح القبطان بصوت عالٍ ، وهو يتجه مترنحًا إلى الجانب :

ـ « اذهب إلى الجحيم !.. أنا أفعل ما أريد على سفينتى .. »

هنا كان على (مونتجمرى) أن يتركه وشأنه ـ وقد رأى كم هو ثمل ـ لكنه مشى وراءه وقد شحب وجهه ، وصاح :

ـ « هذا الرجل يخصنى .. وليس من حقك معاملته هذه المعاملة » .

تصاعدت أبخرة الكحول إلى رأس القبطان ، فعجز عن الكلام .. كل ما قاله هو :

ـ « (حكيم) أحمق .. ! »

كان (مونتجمرى) واحدًا من أصحاب الأمزجة العنيدة البطيئة ، التى تنضج يومًا بعد يوم حتى تتحول إلى نار حارقة ، وبعدها لا تبرد أبدًا لدرجة التسامح .. وعرفت أن هذه المشاجرة تنمو منذ فترة ..

قلت لـ (مونتجمرى) .

ـ « دعه .. فهو ثمل » .

ـ « هو ثمل دائمًا .. لكن هذا لا يسمح له بالاعتداء على المسافرين » .

لوّح القبطان بيده صائحًا :

ـ « هذه سفينتى .. كانت سفينة نظيفة .. انظر إليها الآن .. والطاقم طاقم نظيف محترم .. والآن .. أتمنى لو لم أر قط جزيرتك الجهنمية هذه .. لماذا تنقلون الوحوش إليها ؟ ثم هذا الرجل الذى نقلته معك ـ أعتقد أنه كان رجلا ـ هو مجنون .. هل تعتقد أن كل السفينة ملكك ؟ »

ـ « بحارتك يضايقون الشيطان البائس منذ ركب السفينة .. »

ـ « هذا هو بالضبط .. شيطان .. شيطان قبيح لا يحتمله رجالى ولا أنا ولا أنت .. ولو جاء إلى هذا

الجزء من السفينة ثانية فلسوف أخرج أحشاءه .. أؤكد لك هذا .. أنا مالك هذه السفينة وقد تعاقدت على أن أنقل بعض الحيوانات من إفريقيا إلى تلك الجزيرة ، لكنى لم أتعاقد على نقل شيطان مجنون و (حكيم) أحمق .. »

وهنا بدأ القبطان فى استعمال ألفاظ أكثر سوءًا من كل ما سبق .. فصحت به فى حدة :

ـ « اصمت ! »

وبهذا جلبت الوبال على نفسى .. إلا أننى كنت سعيدًا ؛ لأننى منعت ما يوشك أن يكون مذبحة .. وحتى مع وضع مزاج القبطان المتعكر فى الاعتبار ، فإننى لم أسمع قط هذا السيل من البذاءات يخرج من فم إنسان ، وحتى مع طبعى المسالم ، بدت لى بعض هذه الألفاظ عسيرة التحمل ..

لقد نسيت أننى لم أكن سوى نفاية بشرية على ظهر هذه السفينة ، ولم أدفع أجر سفرى بعد ، وأننى أعتمد بالكامل على الإحسان ..

لقد ذكرنى القبطان بهذا بخشونة حقيقية ..

إلا أننى ـ فى جميع الأحوال ـ قد منعت مشاجرة عنيفة ..

* * *

٤ـ عند حاجز السفينة ..

فى تلك الليلة استطعنا أن نرى الأرض عند الغرب ، وقال لى (مونتجمرى) :

إن هذه هى وجهته ..

من مسافة كهذه لم أتبين التفاصيل ، لكنها بدت لى كبقعة من لون أزرق باهت وسط البحر الأزرق الرمادى .. ومنها تصاعد لسان دخان إلى السماء ..

تناولنا عشاء كئيبًا أنا و (مونتجمرى) ، ولاحظت أنه متحفظ جدًا بصدد الغرض من رحلته ، لذا آثرت الصمت برغم فضولى الشديد ..

ازدادت النجوم كثافة فى السماء ، وساد السكون ..

راح (مونتجمرى) يسألنى عن (لندن) فى صوت ملىء بالشجن .. بدا لى كرجل أحبَّ حياته هناك ثم انقطع عنها فجأة ، هذا الرجل جاء من الفراغ لينقذ حياتى ، وغدًا يختفى من وجودى للأبد من جديد ..

سألته نفس سؤال القبطان : ماذا يريد عمله بالوحوش التى يصحبها معه ؟ لكنه ازداد غموضًا ..

وعند منتصف الليل رحنا نرمق البحر الصامت الذى أضاءته النجوم ، وكل منا يفتش فيه عن ذكرياته .. قلت له :

ـ « أشكرك على إنقاذ حياتى .. »

« هى صدفة .. مجرد صدفة .. كنت تملك الحاجة وكنتُ أنا أملك المعرفة .. وكنت ملولاً أبحث عن شىء أفعله ، فلو لم أكن فى مزاج رائق أو لم أحبَّ منظرك فأين عساك كنت تصير ؟ »

عكرت هذه الإجابة مزاجى .. فأردف قائلاً :

ـ « صدفة .. ككل شىء فى حياة الإنسان .. فقط الحمير لا تفهم هذا ! أنا هنا الآن مجرد طريد للحضارة بدلاً من أن أكون رجلاً سعيدًا يلهو فى (لندن) .. لماذا ؟ لأننى ـ ببساطة ـ منذ أحد عشر عامًا فقدت عقلى لمدة عشر دقائق فى ليلة ضبابية .. »

وكف عن الكلام دون أن يفسر شيئًا ..

سألته المزيد فأوشك على الكلام .. ثم قرر أن يصمت ثانية .. هنا قلت له :

- « حسبك ! .. الأمر سيانٍ عندى .. ولو أننى حفظت سرك فلن تجنى منى شيئًا سوى بعض راحة البال ، أما لو أذعته فعندئذ .. »

وهنا أدركت أننى سيطرت عليه .. وضعته فى حالة من الطيش والرغبة فى الثرثرة .. والحق أننى لم أكن فضوليًّا جدًّا لمعرفة سبب طرد طالب طب شاب من (لندن) .. إن لدىّ خيالاً على كل حال ..

ابتعدت عنه ودنوت من حاجز السفينة ، لأجد خيالاً يقف هناك ويرمق البحر .. كان هذا هو مرافق (مونتجمرى) غريب الأطوار ..

شعر بوجودى فالتفت نحوى لحظة ، ثم عاد يرمق البحر .. ربما بدا لك هذا تافهًا ، لكنه كان كضربة قوية لى .. فحين استدار وجه المخلوق نحوى خارجًا من الظلام ؛ كانت عيناه تلتمعان بضوء أخضر خفيف ..

اخترقت عيناه كل أفكارى البالغة لتصلا إلى مخاوف الطفولة المنسية ، ثم مرّ الأثر سريعًا ..

وفى تلك الليلة رأيت أحلامًا غير سارة ، وارتفع القمر عند منتصف الليل ، ليلقى بضوء شبحى أبيض عبر قمرتى ، ورسم ظلاً مرعبًا على فراشى ..

لهذا نمت بصعوبة حتى الفجر ..

* * *

٥ ـ الرجل الذى لم يكن له هدف ..

فى الصباح المبكر ـ وهو الصباح الثانى بعد شفائى والرابع بعد إنقاذى ـ صحوت من أحلامى الصاخبة .. وبدأت أسمع صراخا خشنا فوق رأسى ..

جاء صوت قدمين عاريتين ، وصوت أجساد ثقيلة تُجرّ ، وصرير ورنين سلاسل .. وعبر النافذة المستديرة رأيت أمواجًا خضراء تتلاطم .. صعدت للسطح لأجد السماء المحمرة المميزة للشروق ، ورأيت ظهر القبطان العريض .. و (البوما) تتلوى وتزأر فى قفصها ..

صاح القبطان :

ـ « إلى القارب معهم ! سينظف مركبنا بعد قليل إذ نتخلص من هؤلاء » .

كان يسدّ طريقى فربتّ على كتفه ليفسح لى .. فاستدار نحوى .. لم يكن الأمر يحتاج إلى خبير ، كى يعرف أن الرجل ما زال ثملاً ..

قال إذ رآنى :

ـ « ماذا ؟ إنه السيد .. »

ـ « (بندرك) .. »

ـ « سحقًا لـ (بندرك) ! (اصمت) .. هذا اسمك .. السيد (اصمت) .. » .

لم تكن الإجابة مفيدة فى ظروف كهذه ، لكنى فوجئت به يمدّ يده إلى حيث كان (مونتجمرى) واقفا يتحدث مع رجل ذى شعر رمادى ، ويرتدى (فانلة) من الأزرق المتسخ ، ويبدو أنه قادم من الجزيرة ..

قال الكابتن بزئير :

ـ « من هنا يا سيد (اصمت) ! هذا الطريق .. إلى خارج السفينة يا سيد (اصمت) ، وبسرعة ، فنحن ننظف السفينة من القاذورات ! »

ونظرت إليه مذهولاً ..

ربما كان هذا ما أريده .. ليست الرحلة مع هذا الوغد المشاغب من الأشياء التى يبكى المرء عليها ..

قال مرافق (مونتجمرى) فى اقتضاب :

ـ « لا يمكن أن نصطحبك معنا .. »

كان له وجه مربع حازم .. أكثر الوجوه التى رأيتها فى حياتى حزمًا ..

صاح القبطان :

- « إلى خارج السفينة تذهب يا سيد (أصمت) ! هذه السفينة ليست للوحوش وأكلة لحوم البشر ومن هم أسوأ منهم ! وإن لم يصحبوك فإننى سأرغمك على النزول على كل حال .. لقد انتهيت أخيرًا من هذه الجزيرة والحمد لله .. »

أشار (مونتجمرى) إلى الرجل رمادى الشعر بجواره ، بما معناه أنه عاجز عن مساعدتى .. رحت أتوسل لكل واحد من الثلاثة : توسلت لرمادى الشعر كى يأخذنى معهم ، وللقبطان كى يبقينى على ظهر السفينة ، و لـ (مونتجمرى) كى يقنع أحدهما ..

لكن القبطان كان مصرًا على طردى خارج سفينته ..

وهنا يجب أن أقول إن صوتى تحشرج ، وأصابتنى حالة من الهستيريا .. وفى الوقت ذاته كان البحارة ينقلون الحملة إلى (لنش) كبير يقف جوار السفينة ، تنقل إليه البضائع فى عجلة ..

كنت جائعًا مرهقًا ، والجوع وفقر الدم ينزعان من الرجل كل رجولته .. لم تكن لدىّ القوة ولا العزيمة كى أقاوم ما يريده القبطان عن طردى ، والأدهى أنه بدا أن أحدًا لا يلاحظ وجودى أصلاً ..

جذبونى - وأنا أقاوم بوهن - إلى قارب نجاة فى مؤخرة السفينة ، وكان نصفه ملىء بالماء خاليًا من أية مؤن ..

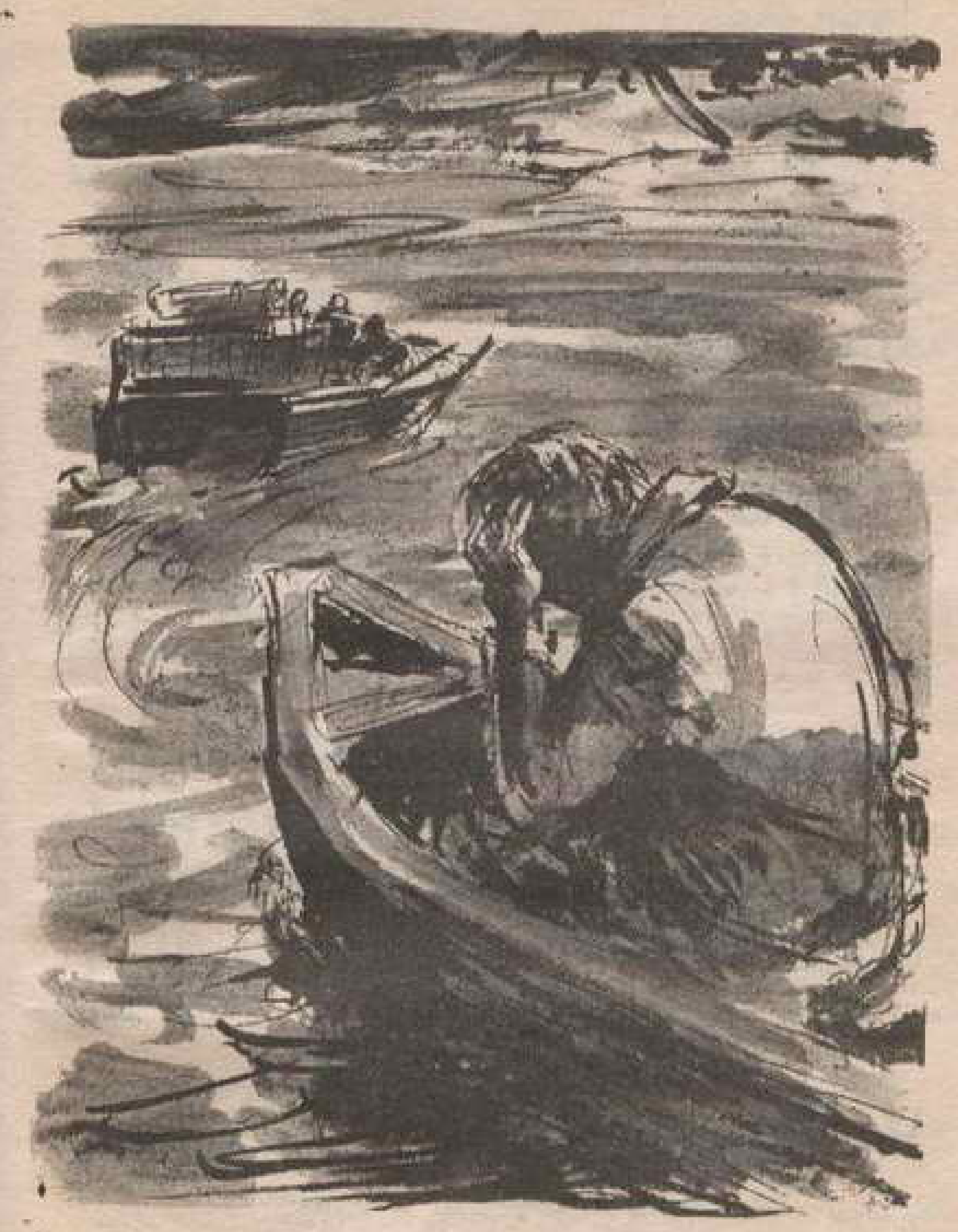
أنزلوه إلى الماء ، وطوحوا بى إليه بحبل ثم قطعوه وكذا وجدت نفسى وحدى بينما السفينة تبتعد عنى ..

فى البداية استطعت بمشقة أن أصدق ما حدث .. مذهولاً رحت أرمق البحر الزيتى الصامت ، وأدركت أننى عدت لجحيمى الخاص ، شبه غريق ..

كان (اللنش) بدوره يبتعد نحو الجزيرة .. وأدركت مدى قسوة ما فعلوه بى .. فلم تكن لدىّ وسيلة للتجديف إلى الشاطئ ، وكنت واهنًا جائعًا .. لهذا بدأت أبكى وأئن كما لم أفعل من قبل منذ كنت طفلاً ..

مددت يدى فى الماء ورحت أحاول التجديف ، وأنا أدعو الله بصوت عال أن يميتنى الآن ..

* * *



فلم تكن لدىّ وسيلة للتجديف إلى الشاطئ ، وكنت واهنًا جائعًا ..

٦ ـ البحارة مخيفو الشكل ..

إلا أن بحارة الجزيرة أدركوا أننى موشك على الغرق وأشفقوا علىّ .. هنا رأيت (اللنش) ـ فى راحة مجنونة ـ يستدير عائدًا لى .. واستطعت أن أرى فوقه رأس (مونتجمرى) ومرافقه ، وقد أحاطت بهما الكلاب والصناديق ..

أما المخلوق المشوه إياه فكان ينظر لى باهتمام ، وجواره كان ثلاثة رجال آخرين لهم نظرات وحشية ، بدا لى أنهم يثيرون هياج الكلاب .. وألقوا لى بحبل ربطته فى القارب كى يجذبونى وراءهم ، فلم يكن لى مكان على ظهر (اللنش) المزدحم ..

تصلب الحبل بين القاربينْ ، وصار (اللنش) يجرّنى وراءه ..

هنا رحت أرمق راكبى (اللنش) فى ثبات أكثر .. كان رمادى الشعر رجلاً قويًا له ملامح قوية ، لكن عينيه كانتا تحملان ذلك الجلد المتدلى فوق الجفون ،

بالإضافة إلى أن ركنى فمه كانا ساقطين لأسفل مما أعطاه انطباعًا من العدوانية ..

رحت أنظر لرجاله الثلاثة .. ويا لغرابتهم من طاقم ! لا أدرى ما الذى أثار فى نفسى ذلك الشعور من الاشمئزاز نحوهم .. كانت أطرافهم ملفوفة بجلد متسخ أبيض ، وكانت على رءوسهم عمائم وتحتها كانت وجوه شبيهة بوجوه الجنّ ترمقنى ، ولهم شعور طويلة سوداء كمعارف الخيول .. كما أن قامتهم كانت طويلة جدًا ..

بالواقع كانت مجموعة شاذة منفرة من الناس .. ولاحظت أنهم لا يتحملون نظراتى المباشرة لهم إذ سرعان ما يخفضون العيون .

ووصلنا إلى الساحل ..

كان الشاطئ مغطى برمال رمادية ، ينحدر فى زاوية حادة لأسفل ، بينما هناك سلسلة تلال فوق مستوى البحر ، تحف بها أشجار ونباتات .. وكانت هناك أحجار تكونت جزئيًا من الفحم ومن الحمم الزجاجية ..

أعتقد أننى رأيت كذلك ـ إذ دنونا ـ بعض مخلوقات غريبة ترمقنا من وراء الأشجار .. لكنى لم أرها حين دنونا أكثر ..

بأمر من (مونتجمرى) وثب أربعة رجال إلى (اللنش) ليتولوا أمر الشراع بحركات خرقاء ، وبدأنا ندخل خليجًا صغيرًا يتسع بصعوبة لنا ، وسمعت صوت المجاديف ترتطم بالرمال ..

ثم وثب الرجال إلى الشاطئ ، بينما بقى واحد منهم لينزل الحمولة .. لاحظت ـ بصفة خاصة ـ الحركات الغريبة لهؤلاء الرجال المضمدين ، فلم تكن ذات نمط معين .. كانت مشوهة كأنما مفاصلهم فى الأماكن الخاطئة ..

كانت ضوضاء الكلاب عالية جدًا ، بينما (مونتجمرى) يثبت الدفّة وينزل إلى الشاطئ .. ودنا ذو الشعر الأبيض منى ليقول :

ـ « يبدو لى أنك تتضوَّر جوعًا .. »

كانت عيناه السوداوان تلتمعان تحت حاجبيه ، وأردف :

ـ « يجب أن أعتذر لك .. بما أنك ضيفنا فعلينا أن نجعلك مستريحًا .. يبدو أنك رجل متعلم يا مستر (بندرك) .. إن (مونتجمرى) يقول إن لديك خلفية علمية ما .. »

أخبرته أننى أجريت بعض دراسات علمية فى (البيولوجى) تحت إشراف (هكسلى) .. رفع حاجبيه قليلاً مندهشًا لهذا ، وبدا بعض احترام طفيف فى أسلوبه معى .. وقال :

ـ « هذا يغير الأمور يا مستر (بندرك) .. كما ترى نحن جميعًا ندرس (البيولوجى) ، ولدينا ما يشبه محطة الأبحاث هنا .. »

كان الرجال يقتادون (البوما) إلى ما يشبه المنزل ذا الأسوار الحجرية ، بينما (مونتجمرى) يضع كومة من الأقفاص الصغيرة على عربة ذات عجلات .. وداخل الأقفاص كانت أرانب صغيرة ..

قلت له :

ـ « هأنتذا تنقذنى ثانية .. »

قال لى :

ـ « هذا يتوقف عليك .. لسوف تجد هذه الجزيرة مكانًا شاقًا كالجحيم ، ولو كنت مكانك لراقبت سلوكى جيدًا .. »

وتردَّد قليلاً .. ثم تراجع عما ينوى قوله ، وأضاف :

ـ « أتمنى أن تساعدنى مع الأرانب .. »

وكان أسلوبه فريدًا مع تلك الأرانب .. رأيته يحمل الأقفاص ثم يفتح أبوابها ويقلب كلاً منها ليخرج محتوياته على الأرض ، لتتكوم الأجساد الحية ، وتركض متواثبة .. حوالى عشرين منها تبتعد ..

ـ « تكاثروا يا أصدقائى ! عمّروا الجزيرة لأن لدينا مشكلة لحم حقيقية هنا .. »

هنا عاد ذو الشعر الرمادى بزجاجة شراب وبعض البسكويت ، وقال :

ـ « شىء تتبلغ به يا (بندرك) .. »

وعلى الفور انقضضت على البسكويت ، لكنى لم أمس الشراب ؛ لأننى لم أذق المسكرات منذ مولدى ..

* * *

٧ ـ الباب المغلق ..

اصطحبونى إلى المنزل ذى السياج ، ولاحظت أن كومة المتاع قد تم وضعها هناك مع قفص (البوما) ..

قال ذو الشعر الرمادى لـ (مونتجمرى) :

ـ « الآن تجىء مشكلة هذا الضيف غير المدعو .. ماذا سنفعل معه ؟ »

ـ « إنه لديه خبرة علمية .. »

ـ « أنا أتحرق شوقًا للبدء فى هذا الموضوع الجديد .. »

وازدادت عيناه التماعًا .. قال (مونتجمرى) :

ـ « لا يمكن أن نرسل الضيف هناك ، ولا يمكن أن نبنى له كوخًا .. كما أننا لا نستطيع أن نثق به بعد .. »

قلت بدورى :

ـ « أنا تحت تصرفكم .. »

ولم تكن لدىّ أية فكرة عما يعنيه بكلمة (هناك) ..

قال (مونتجمرى) :

ـ « كنت أفكر فى حجرتى ذات الباب الخارجى .. »

وهبطنا إلى المنزل ، بينما قال (مونتجمرى) :

ـ « يؤسفنى يا مستر (بندرك) أننى غامض معك .. فإن مؤسستنا هنا تحوى سرًا من نوع ما .. شىء كحجرة ذى اللحية الزرقاء .. بالواقع لا شىء يثير فزع الرجل العاقل ، لكن بما أننا لا نعرفك جيدًا .. »

قلت على الفور :

ـ « طبعًا .. ولأكونن أحمق لو ضايقتنى أنكم لا تثقون بى .. »

ابتسم فى سخرية مريرة ، وانحنى معبرًا عن تقديره لتفهمى ..

كان الباب الخشبى ثقيلاً موصدًا بالحديد ، وجواره باب صغير أولج فيه ذو الشعر الرمادى مفتاحًا ..

أخيرًا وجدت نفسى فى شقة صغيرة مريحة ، لكنها بسيطة الأثاث ، وسرعان ما أغلق (مونتجمرى) الباب ..

وفى طرف الغرفة كان سرير معلّق ، ونافذة عليها قضيب حديدى يطلّ على البحر .. وباب يقود إلى ساحة خارجية ..

وقال لى ذو الشعر الرمادى إنهم سيغلقون الباب الصغير علىّ من الخارج (خشية الحوادث) .

وأشار إلى كتب قديمة ، منها ما هو عن الجراحة ، ومنها ما هو طبعات لاتينية وإغريقية ، وهى لغات لم أستطع قط أن أقرأها مستريحًا .. وكانت الكتب متراصة على رفّ فى ركن الغرفة ..

قال لى (مونتجمرى) وهو يغادر الغرفة مع الآخر :

ـ « نحن نتناول طعامنا فى هذا المكان .. »

ثم خرج ، وسمعته ينادى :

ـ « (مورو) ! »

متى سمعت اسم (مورو) هذا من قبل ؟ ورحت أرمق البحر من وراء النافذة وأنا ألتهم ما بقى معى من (بسكويت) .. (مورو) !

عبر النافذة رأيت واحدًا من هؤلاء الرجال الغريبين

يجرّ حقيبته فوق رمال الشاطئ ، ثم سمعت المفتاح يدور فى الباب خلفى ، وسمعت الكلاب وراء الباب .. لم تكن تنبح لكنها تخور بطريقة غريبة ..

ما هذا المكان ؟ ما سرّ هذين الرجلين ؟ من هو (مورو) هذا ؟ »

لم أستطع فى هذه اللحظة بالذات أن أسترجع الارتباط الصحيح لهذا الاسم .. يا لغرابة الذاكرة البشرية !

جاء لى صديق (مونتجمرى) غريب الشكل فى هذه اللحظة .. كان يرتدى الأبيض ويحمل صحفة عليها بعض الخضر المسلوقة .. ووضعها أمامى على المنضدة ..

هنا شلّتنى الدهشة .. فتحت خصلات شعره السوداء الملتفة ، رأيت أذنه إذ دنت من وجهى .. كانت أذنه مدببة مغطاة بفراء بنى اللون ..

ـ « إفطارك يا سيدى »

قالها واستدار نحو الباب ، بينما أنا لا أبعد عينىّ عنه ..

هنا ـ وبحيلة غريبة من اللاوعى . تداعت إلى ذهنى الجملة (أحوال مورو) .. هل كانت هكذا ؟ وعاد عقلى إلى الوراء عشر سنوات فتحررت الجملة الصحيحة : (أهوال مورو) ..

الآن أراها مكتوبة بحروف حمراء فى جريدة ..

لقد كنت شابًا وقتها ، وكان (مورو) فى الخمسين من عمره ، عالم وظائف أعضاء شهيرًا بارزًا فى الدوائر العلمية ، بسبب خياله الخارق .. لقد نشر أبحاثًا غريبة فى الباكتريا والطفيليات ونقل الدم ، ثم فجأة أغلق عيادته وفارق (انجلترا) ..

والسرّ هنا هو أن صحفيًا تنكر بشكل باحث ، وعمل لفترة فى معمله بحثًا عن حقائق مثيرة . وسرعان ما حدثَ حادث مروّع .. لقد هرب كلب ممزق الأوصال من منزل (مورو) ، وكتب صحفى كبير مقالاً عن ذلك ، وناشد فيه ضمير الأمة .. لم تكن تلك أول مرة يصطدم فيها الضمير بوسائل البحث العلمى ، لكن (مورو) طُرد من البلاد ببساطة تامة ..

ربما كان يستحق ذلك .. لكن مازلت أعتقد أن

فتور زملائه الباحثين نحوه ، وتخلِّى العلماء عنه ، كانا أمرين مشينين ..

لقد كانت بعض تجاربه على الحيوانات ـ كما قال الصحفى ـ قاسية جدًا .. وكان (مورو) غير متزوج لا يهتم بشىء سوى العلم ..

هنا شعرت بأن (مورو) الجزيرة هو نفس الرجل .. كل شىء يشير إلى هذا .. وأدركت النهاية التى تنتظر كل الحيونات التى جلبوها إلى هذه الجزيرة .. وشَمَمْتُ رائحة المطهر الذى يستخدمونه فى التشريح ..

خلف الجدار كانت (البوما) تزأر فى وحشية .. لم يكن هناك شىء فى تشريح الحيوان يبرّر كل هذه السرية ..

ما معنى هذا ؟ جزيرة مهجورة .. عالم شهير .. رجال مشوهون معوقون ؟

رحت أرمق البحر الأخضر والأفكار تصطرع فى ذهنى ..

* * *

٨ ـ صراخ الـ (بوما) ..

قاطع (مونتجمرى) شكوكى فى الساعة الواحدة ..

كان تابعه خلفه يحمل صحفة عليها خبز وخضر وأكواب ومدى .

نظرت إلى المخلوق شذرًا فوجدته يختلس النظر إلىّ ..

قال (مونتجمرى) إنه سيتناول الغداء معى ، لكن (مورو) مشغول الآن ..

قلت له :

« (مورو) ! أنا أعرف هذا الاسم ! »

ـ « بحق السماء أنت تعرفه ؟ لقد كنت غبيًا حين ذكرته لك .. ما كنت لأنسى أنه سيوحى لك بسرنا .. لكن لاجدوى من إغلاق الاسطبل بعدما سُرق الحصان .. »

سألته بعدما انصرف التابع :

ـ « (مونتجمرى) .. لماذا أرى أذنى رجلك مدببتين ؟ »

ـ « يا للجحيم ! أذنان مدببتان ! »

ـ « هما كذلك .. ومغطاتان بشعر دقيق أسود .. وعيناه تلتمعان فى الظلام »

جرع بعض الماء فى عصبية ، وبدأت لثغته تظهر أكثر ، وقال :

ـ « آه ! ألهذا يغطى أذنيه دائمًا ؟ »

بدا لى أن جهله تصنّع ، لكنى لم أصارحه باعتقادى فى كذبه ..

هنا جاءت صرخة حيوانية قصيرة من الساحة خلفنا ، وبدا واضحًا أنها صرخة (البوما) .. وقطب (مونتجمرى) وجهه وتشاغل بالأكل ..

قلت له :

ـ « إنه غير طبيعى .. ثمة شىء ما بخصوصه ، وهو يعطينى شعورًا رهيبًا وعضلاتى تتوتر بشدة حين يدنو منى .. »

قال (مونتجمرى) وهو يمضغ فى عصبية :

ـ « لا أدرى .. لا فكرة لى عن هذا .. لابد أن بحارة السفينة شعروا بنفس الشىء .. »

هنا صرخت (البوما) صرخة أشد هولاً ..

سألته :

- « رجالك على الشاطئ .. من أى جنس هم ؟ »

قال فى شرود وهو يقطب حاجبيه :

- « رجال ممتازون .. ألا ترى هذا ؟ »

وجرع من الشراب ، ثم راح يحاول - فى توتر - أن يقودنى إلى محادثة جانبية . وانتهت وجبتنا ، فجاء المسخ المشوّه مدبب الأذنين ليرفع بقايا الطعام ..

وانصرف (مونتجمرى) وهو لا يخفى توتّره بسبب صراخ (البوما) إياه ..

ووجدت أن الصرخات تزداد عمقًا .. بدأتْ بالألم ثم بالمعاناة العظمى ، وسرى التوتر إلى داخلى فرميت بكتاب (هوراس) الذى كنت أطالعه ، ورحت أذرع الغرفة متوترًا حتى اضطررت إلى سدّ أذنىّ بأصابعى ..

حقًا لم أعد أحتمل البقاء ثانية فى هذه الغرفة ..

غادرت المكان إلى الخارج حيث العصر الناعس .. كان الصراخ أشد ارتفاعًا ، كأن كل الألم فى الكون وجد له صوتًا ..

* * *

٩ - الشىء فى الغابة ..

مشيت تحت الأشجار التى تغطى ما وراء المنزل ، لا أدرى لأين أذهب ، ومررت بين بعض النخيل مستقيم الجذوع ، ولأسفل رأيت مجرى مائيًا صغيرًا ينحدر نحو الوادى الضيق ..

كان الهواء جامدًا .. وفجأة صدر حفيف أشجار ، ثم برز أرنب ركض نحو الغابة أمامى .. فأجفلت ..

كان الجدول مغطى بنباتات كثيفة على ضفتيه .. وعلى الأرض انتثرت بقع أرجوانية من فطر نامٍ ..

شعرت برغبة شديدة فى النوم ، فأغمضت عينى قليلاً ، ثم صحوت على صوت من بين الأشجار .. نظرت حولى ثم إلى ضفة الجدول البعيدة ، فرأيت رجلاً يمشى على أربعة أطراف كالحيوانات ، يرتدى ثيابًا زرقاء ، وله لون نحاسى وشعر أسود .. وأدركت أنه منحن على الماء يشرب .

بدا لى أن القبح هو سمة لا تتجزأ فى سكان هذه الجزيرة ..

شعر بى فالتقت عينانا للحظة .. وقف يمسح فمه بيده وهو يرمقنى ، ولمحت شيئًا من الخجل فى عينيه ..

تبادلنا النظرات لدقيقة كاملة ، ثم انزلق بين الأشجار عن يمينى ، وسمعت الأغصان تحتك ببعضها .. ثم توارى تمامًا ..

نظرت حولى فى عصبية وندمت لأننى غير مسلح .. برغم كل شىء هو شخصية مسالمة .. وليس متوحشًا ما دام يرتدى الثياب .

رحت أشق طريقى وأنا أتلفَّت حولى مرتبكًا .. لماذا يمشى هذا الشىء على أربع ؟

عبرت الجدول الصغير وواصلت مسيرى .

فى ظل بعض النباتات الكثيفة وجدت مشهدًا غير بهيج .. جسد أرنب دافئ غطاه الذباب اللامع .. لقد تمزق رأسه .

ابتعدت عن مشهد الدماء .. هنا على الأقل تخلصوا من أحد زوار هذه الجزيرة ! لكم هى ميتة بشعة !

تبدلت الأشجار حولى لتلائم خيالى : لم تعد الظلال



فرأيت رجلاً يمشى على أربعة أطراف كالحيوانات ، يرتدى ثيابًا زرقاء ، وله لون نحاسى وشعر أسود ..

ظلالاً بل هى كمائن منصوبة لى .. وصارت كل ورقة شجر تهديدًا ..

قررت العودة للمنزل سريعًا .. اندفعت بين الأشجار سريعًا راغبًا فى العثور على مساحة خالية منها ، وبصعوبة منعت نفسى من مواصلة الاندفاع ؛ فقد كانت هناك فسحة تصطرع عليها البذور لاحتلال الموضع الخالى .. وأمامى كانت ثلاثة أشكال بشرية غريبة منحنية على شجرة ساقطة متحللة ، أحدها يمثل أنثى والآخران يمثلان ذكرين ..

كان لجلودهم لون وردى غريب ، ووجوههم مكتنزة بلا ذقون ، وجباههم متراجعة للوراء .. كانوا يتكلمون بلغة لم أستطع تمييزها ، برغم أننى سمعت الكلمات بوضوح ..

وبدأت نبرة الكلام تزداد حدّة ، وتصاعدت أصوات توحى بغناء ما ، وإذا بهم ينهضون ليؤرجحوا أجسادهم مع الإيقاع كأنما يرقصون ..

كوّنوا دائرة وراحوا يلوحون بأذرعهم .. ومرارًا رددوا ما بدا لى أنه لفظة (ألولا) أو (بالولا) ..

واللعاب ينحدر من أفواههم عديمة الشفاه فى تعبير عن السرور عجيب ..

هنا فهمت للمرة الأولى لماذا أعطتنى هذه المخلوقات ذلك المزيج الغريب من الشعور بالألفة ، والاشمئزاز فى الوقت ذاته ..

إن كل واحد من هؤلاء - برغم ثيابه ومظهره الإنسانى - يذكرك بحيوان مألوف لديك .. ربما بالخنزير .. ثمة مسحة خنزيرية فى كل شىء يحيط بهم .. مسحة لا تدحض ..

كانوا الآن يثبون فى الهواء وهم يئنون ويصرخون ، ثم سرعان ما هبط أحدهم ليمشى على أربع .. وكانت هذه اللحظة الحيوانية كافية بالنسبة لى .. وقررت الابتعاد سريعًا ..

* * *

فى كل لحظة من ابتعادى ؛ كنت أتصلب خشية أن يكون أحدهم فى إثرى .. إذ يتهشم غصن شجرة أو يتعالى حفيف ورقة ، ومرّ آن طويل حتى استجمعت جرأتى وبدأت أتحرك بحرية..

وصلت لفسحة ما بين الأشجار ، وهنا رأيت قدمين غير متسقتين تمشيان بخُطَى صامتة ، موازيتين لاتجاهى ، وعلى بعد ثلاثين ياردة منى .. وكان الرأس وأعلى الجسد يتواريان وراء الأغصان ..

بلغ توترى ذروته .. وبصعوبة تحكمت فى نفسى .. الآن أرى جسد ورأس الوحش ، وبريق الزمرد فى عينيه إذ نظر نحوى ..

وفى اللحظة الثانية توارى فلم أعد أراه ..

لم يكن معى سلاح ولاحتى عصا .. على كل حال فهذا الشىء يفتقر إلى الشجاعة اللازمة ليهاجمنى ؛ لذا ضغطت على أسنانى وتقدمت نحوه فى ثبات ..

أخيرًا دنوت منه ، فثبتَ عينى فى عينيه وسألته :

ـ « من أنت ؟ »

قال فجأة :

ـ « لا ! »

وهرع يركض متواريًا فى الأحراش .. كان قلبى فى فمى ، لكنى شعرت بأن فرصتى الوحيدة هى أن أخدعه ، لذا واصلت التقدم نحوه ..

هنا لاحظت أن الوقت تأخَر كثيرًا ، ولسوف يضعف هذا موقفى كثيرًا ..

إن ضوء الشمس يتوارى خلف الأشجار ، وليس من مصلحتى أن أمضى الليل وسط الأهوال المجهولة لهذه الغابة .. على أن أفرَ إلى الحصن ..

إن فكرة أن يظفر بى الظلام وكل ما يداريه الظلام فى هذا المكان المفتوح ؛ لفكرة لا أتحملها ..

مشيت فى الاتجاه الذى جئت منه .. وفجأة وجدت مساحة خالية من الأشجار ، السماء الزرقاء تزداد قتامة فوق رأسى .. غاب اللون عن العالم ، واكتست الأشجار بلون الحبر ، وذاب الضوء فى ظلال غير محدَّدة ..

لا أتذكر أننى رأيت هذا المكان من قبل .. والمشكلة هى أننى كنت أسمع حفيفًا من الأشجار على يمينى طيلة الوقت .. رحت أنظر لليمين من آن لآخر لأفاجئ شيئًا ما يوشك على الوثب علىّ ..

لقد عاد غريمى ليطاردنى .. وغمرنى فهم غير سار لحقيقة أننى ضللت الطريق ..

* * *

واصلت مشيى اليائس .. والصوت مستمر ..

إما أنه يخاف أن يهاجمنى ، وإما أنه ينتظر لحظة الهجوم المثلى له ..

سمعت شيئًا يقع خلفى .. وخيل لى أن ظلاً أسود يثب فوق ظلّ آخر ..

لا أشعر سوى بطنين الدم فى أذنى ..

الآن أدنو من البحر الهادئ الزيتى تلتمع النجوم فيه ..

لم أر خلفى شيئًا أو رأيت الكثير جدًا .. لقد كان كل شكل فى الظلام يوحى بأن له حياته الخاصة ، ويراقبنى فى يقظة ..

الآن أرى الشىء دانيًا يمشى منتصبًا .. لم يكن حيوانًا إذن ..

فتحت فمى لأتكلم ، لكن البلغم الغليظ كان يسدّ حلقى .. حاولت ثانية :

- « من هناك ؟ »

لا إجابة .. فتقدمت خطوة إلا أن الشىء لم يتحرك ..

اصطدمت قدمى بحجر فخطرت لى فكرة .. تذكرت ما كان يفعله صبى المدرسة أمام كلب كبير .. لففت الحجر فى منديلى على شكل مقلاع ، هنا تراجع الشىء متواريًا من جديد ..

بدأت أجرى فوق الرمال ، وسمعت صوت أقدام تجرى ورائى ..

فتملكنى ذعر حقيقى وأطلقت صرخة ، وزدت سرعة الركض ..

شعرت بأنفاسى تتلاشى ؛ لأنى كنت أفتقر إلى المران ، وآلمنى صدرى وانغرس خنجر فى خصرى ، وتوقعت أن يلحق بى الشىء .. لهذا استدرت للوراء وضربته بالحجر بأقوى ما لدىّ .. هوت القذيفة على صدغه الأيسر وسمعت صوت الارتطام .. تدحرج ليسقط على رأسه فوق الرمال ..

لم أجد الشجاعة الكافية كى أتفحص تلك الكومة الرمادية ، وواصلت الركض نحو الحصن ..

* * *

١٠ ـ صراخ رجل ..

أخيرًا وبعد عناء وصلت إلى الحصن .. وجدت (مونتجمرى) ملهوفًا أعياه البحث عنى ، ولم يبد مستعدًا للإجابة عن أى من أسئلتى ، بل قدّم لى بعض الدواء المنوّم .. وقال لى :

ـ « لو لم تنم الليلة فسيتخلى عقلك عنك غدًا .. »

وكذا لم أجد مفرًا من إطاعته .. ونمت نومًا عميقًا ..

صحوت فى الصباح ورحت أرمق السقف .. كانت دعاماته مصنوعة من خشب سفينة .. وكانت هناك وجبة معدّة لى موضوعة على المنضدة ..

نهضت من الفراش المعلّق شديد الأدب .. فقد قرر أن يساعدنى على النهوض ، وتلوّى ليلقى بى على الأرض ..

كان رأسى ثقيلاً ، تزدحم فيه أغرب الذكريات .. وهبَّ نسيم الصباح من النافذة ، فأعطانى شعورًا براحة حيوانية ..

انفتح الباب خلفى ، وأطل منه وجه (مونتجمرى) .. قال لى :

ـ « حسن .. أنا مشغول جدًا هذا الصباح .. »

وتوارى من جديد ناسيًا الباب مفتوحًا ..

سمعت صرخة قصيرة لكنها لا تخص (البوما) .. توقفت عن المضغ منتظرًا المزيد ، لكنى لم أسمع شيئًا آخر .. وقررت أن هذا خيال لذا واصلت طعامى فى سكون ..

من جديد أسمع صوت أنين ومن يجهش بالدموع .. هذا ليس صوتًا حيوانيًا .. إنه صوت إنسان يتعذب !

غادرت الغرفة فى حذر وخرجت إلى الساحة ؛ لأرى ما هنالك ..

هنا دوّى صوت (مونتجمرى) :

ـ « (بندرك) يا رجل ! توقف ! »

لكنى اندفعت للأمام لأجد كثيرًا جدًا من بقع الدم فى كل مكان ، وشممت رائحة حمض (الكربوليك) المطهّر .. ثم رأيت جسدًا يقف مربوطًا إلى إطار خشبى .. جسدًا آدميًا تفعمه الجراح ..

ولمحت وجه (مورو) العجوز شاحبًا مخيفًا .. مدّ يده يجذبنى من ذراعى للوراء .. يده الملطخة بالدم ..

كان قويًا حتى إنه حملنى إلى غرفتى كطفل ، وسرعان ما دار المفتاح فى القفل ، وجاء صوت (مونتجمرى) يحاول إقناعه بشىء ما ..

صوت (مورو) يقول :

- « يهدم مجهود عمر بأكمله » .

- « لكنه لا يفهم .. ! »

- « إننى بحاجة إلى كل دقيقة من وقتى .. »

نهضت من مكانى وعقلى مزدحم بخواطر مخيفة .. أمن الممكن أن هذا الرجل يمارس تشريح البشر وهم أحياء ؟ صدمنى السؤال كالبرق فى سماء مكفهرة .. وفجأة أدركت بوضوح نوعية الخطر الذى يحاصرنى فى هذا المكان ..

* * *

١١ـ صيد البشر ..

أدركت أن الباب الخارجى لغرفتى لم يكن موصدًا .. وكنت على قناعة كاملة بأن (مورو) يشرّح البشر الأحياء .. هذا متوقع منه بما أعرفه عنه ..

هؤلاء الوحوش على الجزيرة هم نتاج عبقريته المخبولة ، أما هذان الوغدان فقد خدعانى .. أنقذانى ولعبا تمثيلية موحية بالثقة ، كى يفاجئانى بما هو أبشع من الموت ..

نظرت حولى بحثًا عن سلاح .. لا شىء .. كان هناك مقعد خشبى هشمته وانتزعت منه قطعة خشبية ، بها مسمار بارز ، مما أعطى مسحة من الخطر لسلاح لا خطر منه ..

سمعت خطوات قادمة ففتحت الباب ، فوجدت (مونتجمرى) على بعد عشرين ياردة .. هويت بالسلاح على وجهه لكنى لم أصبه ، وهرعت جاريًا نحو خارج المنزل ..

صاح (مونتجمرى) :

- « (بندرك) يا رجل ! .. لا تكن سخيفًا ! »

إن هى إلا دقائق ويلحق بى لأصير أرنبًا فى معمل .. راح يجرى خلفى .. فاتجهت إلى الشمال ، ورحت أركض عبر الشاطئ ..

كان صدرى يتمزق وقلبى يخفق فى أذنى .. لم أعد أسمع (مونتجمرى) ولا رجله ، وتواريت فى أجمة خيزران أخشى أن أتحرك ، وأكثر خوفًا من أن أقرر ما يجب عمله ولا صوت سوى الحشرات التى وجدتنى ، وتنفس البحر الخمول من بعيد ..

كنت أعرف أن (مورو) و (مونتجمرى) يحملان مسدسين ، بينما لا أحمل أنا سوى أكثر الأسلحة إضحاكًا : عصا خشبية بها مسمار ..

رحت أفكر فى الطعام والشراب ، وبدأت أفهم عبثية موقفى .. أنا لا أعرف ما يمكن أكله .. وجاهل بالزراعة لا أدرى ما يمكن أكله من جذور ، ولا أملك أدنى فكرة عن كيفية اصطياد الأرانب ..

إن موقفى لمستحيل ..

فجأة سمعت نباح كلب ، وهنا أدركت خطرًا جديدًا ..

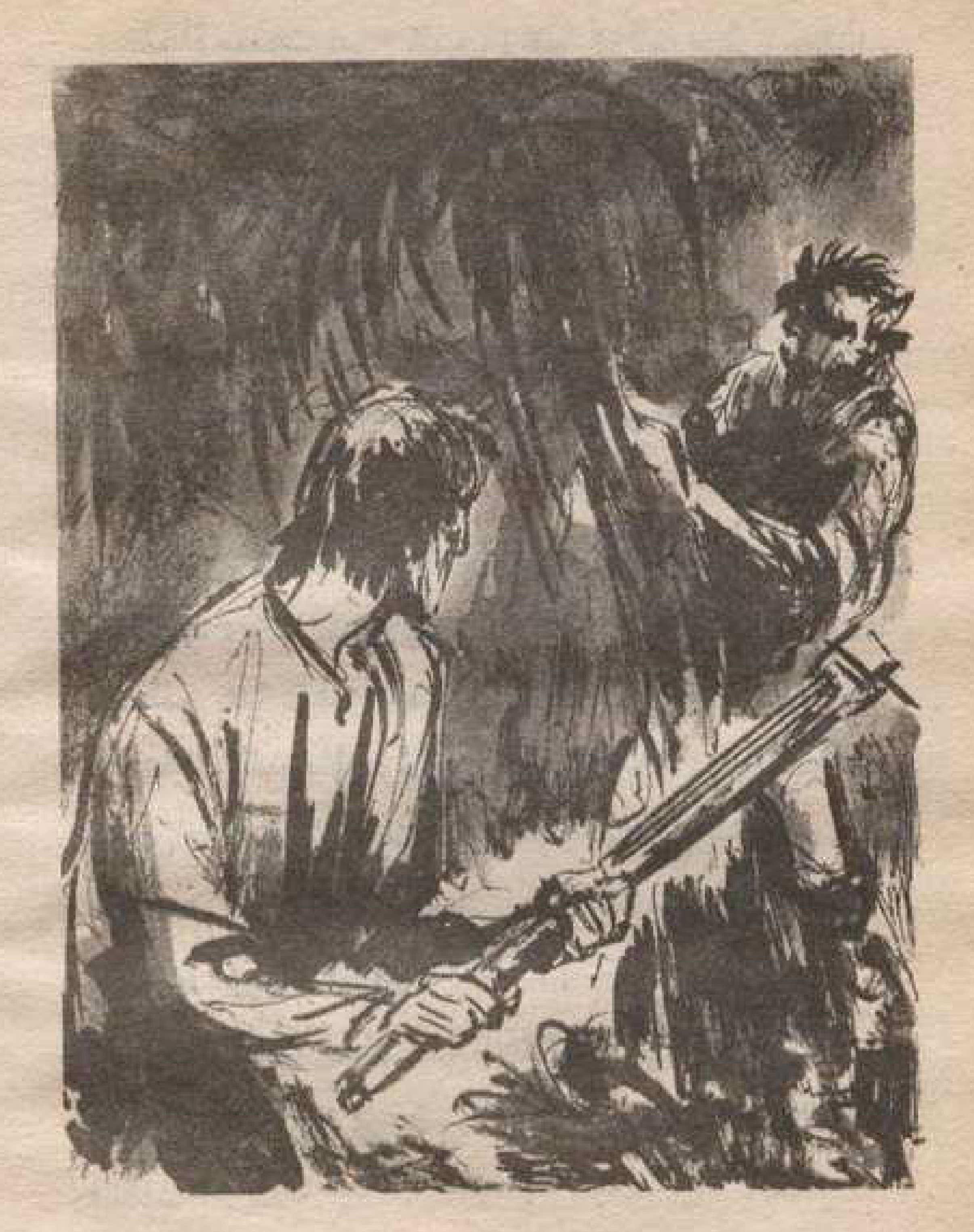
هرعت نحو البحر هاربًا من الموضع الذى تواريت فيه ، واتجهت إلى الماء دون تردد ، حتى وصل إلى ركبتى ..

عبرت المجرى الصغير وأنا أسمع نباح الكلب دانيا ، وعبرت مجموعة من الأشواك مزقت وجهى وثيابى ..

لم أكن خائفًا أو قانطًا .. لقد تجاوزت حدود الخوف والقنوط ، ونما لدىّ يقين تام بأن حياتى قد انتهت ، وجعلنى هذا اليقين أجسر على أى شىء .. لكم تمنيت وقتها لو قابلت (مونرو) وجهًا لوجه .. رحت أعزّى نفسى بأن هؤلاء القوم لو ضيقوا علىّ الخناق ، فلن يمنعونى من إغراق نفسى .. فقط منعنى عن هذا أمل غامض فى أن تنتهى المغامرة بشكل ما ..

رحت أنظر حولى إلى الأشجار ، وفجأة وثب إلى عينىّ وجه أسود يرمقنى .. كان يتمسك بجذع نخلة ، ويقول مرارًا :

- « أنت .. أنت .. أنت .. »



وفجأة وثب إلى عينىّ وجه أسود يرمقنى .. كان يتمسك بجذع نخلة ، ويقول مرارًا : ـ « أنت .. أنت .. أنت .. » !

فى اللحظة الثانية وثب ليقف أمامى .. ولم أشعر نحوه بنفور مماثل لما كنت أشعر بـه نحو المخلوقات الأخرى .. قال لى :

ـ « أنت .. فى القارب .. »

قلت :

ـ « نعم .. كنت فى السفينة .. »

نظر لى فى اهتمام .. راح ينقل عينيه من وجهى إلى جسدى إلى عصاى .. ثم نظر إلى يده .. وعدّ أصابعه :

ـ « واحد .. اثنان .. ثلاثة .. خمسة .. »

هنا لاحظت أن أكثر هؤلاء القوم لهم أيد مشوّهة تنقصها بعض الأصابع .. لكنى فعلت نفس ما فعله على سبيل التحية ..

تركنى ووثب إلى جذوع النخيل ليتعلق بها ..

صحت مناديًا :

ـ « هالو ! .. أين أجد ما آكله ؟ »

ـ « أكل ؟ تأكل كل طعام الإنسان الآن .. فى الأكواخ ! »

وتراجعت عيناه عنّى .. ثم هبط للأرض ، وأدركت أنه يقودنى إلى هذه الأكواخ .. لابد أنها مأوى حنش يعيش فيه مع الوحوش الأخرى .. لربما كانوا ودودين ، ولربما وجدت فى عقولهم مقبضًا يمكن أن أتمسك به .. لا أدرى لأى مدى نسوا ميراثهم الآدمى ..

كان هذا المخلوق أذكى بقليل من أن يكون معتوهًا .. ورأيته يمدّ يده لشجرة فيلتقط بعض ثمار ناولها لى .. على الأقل هنا يمكن أن أجد ما يمكن أكله ..

كنا الآن بين أشجار بنية محترقة ، ودخان نفاذ الرائحة يصاعد من الأرض ، والطريق يتعرج إلى ممر ضيق من الحمم البركانية المتجمدة ، وهو ممر مظلم للغاية .. توقف مرافقى وقال :

ـ « البيت ! »

ووقف على حافة مدخنة جيولوجية ، وشممت رائحة كريهة تذكرنى بقفص القرود المتسخ فى حديقة الحيوان ..

لقد كانوا يعيشون هنا ..

* * *

١٢ـ الناطق بالقانون ..

مسّ شىء يدى ، فانتفضت لأجد شيئًا ذا لون وردى ، كطفل مسلوخ أكثر منه أى شىء آخر ـ له نفس السمات المنفرة المميزة لحيوان (الكسلان) واستطعت أن أميز على جانبى الممر أكوامًا من سعف النخيل ، تم وضعها كأنها أعشاش مظلمة ..

دعانى مرافقى الأول كى أدخل أحد هذه الأعشاش .. هنا خرج وحش بطىء الحركة من أحد هذه الأماكن ، وراح يرمقنى دون كلل .

قررت أن أخوض المغامرة لآخرها ، وأمسكت العصا من منتصفها ، وزحفت خلف مرافقى ..

كان المكان شبه دائرى قريبًا من خلايا النحل فى مظهره ، وفى أكثر أركانه إظلامًا كانت كتلة عديمة الشكل من اللون الأسود ..

قدم لى مرافقى ثمرة جوز هند مهشمة ، فتناولتها وبدأت أقضمها بلامبالاة ، برغم رهبتى من هذا المكان ..

ومن المكان الذى يجلس فيه الكائن عديم الشكل :

- « هيه .. إنه رجل ! »

قال مرافقى :

- « هو رجل .. رجل خمسة مثلى ..(*) »

زأر القابع فى الظلام :

- « اخرس .. ! »

ثم عاد يسأل بعد صمت مخيف :

- « إنه رجل .. هل جاء ليعيش معنا ؟ »

كان فى صوته صفير غريب ، لكن لكنته الإنجليزية كانت ممتازة إلى حدّ يثير الدهشة .. نظر لى مرافقى كأنما يتوقع شيئًا ، وقال :

- « جاء يعيش معنا .. »

- « إنه رجل .. ويجب أن يتعلم القانون .. »

نظرت للوراء لأدرك أن فتحة العش يسدّها رأس أحدهم ، لم أتبين ملامحه .. لكنه كان شكلاً أكثر سوادًا من السواد .. وتقلصت يدى على عصاى ..

هنا صاح الشىء القابع فى الظلام :

(*) يعنى أنه يملك خمسة أصابع مثله ..

- « لا تمش على أربع .. هذا هو القانون .. »

قال مرافقى ليزيل حيرتى :

- « قل الكلمات .. »

ورددت الأصوات نفس الكلمات فى الظلام ، بنبرة مهددة .. فأدركت أن علىّ أن أردد هذه الصيغة البلهاء .. هنا بدأت أكثر المواعظ خبالاً ..

لقد راح الكائن القابع فى الظلام يردد نوعًا من الوعظ المجنون ، يقوله سطرًا سطرًا ، وكان علىّ أن أردد هذا وراءه .. وكانوا يرددون معه تلك المقاطع وهم يتمايلون إلى الجانبين ، ويضربون بأكفهم على أفخاذهم ..

كان من السهل علىّ الآن أن أتخيل أننى ميت وفى عالم آخر ..

- « ألا نمشى على أربع .. هذا هو القانون .. ألسنا رجالاً ؟ »

- « ألا نمتص الشراب .. هذا هو القانون .. ألسنا رجالاً ؟ »

ـ « ألا نغرس مخالبنا فى لحاء الأشجار .. هذا هو القانون .. ألسنا رجالاً ؟ »

ـ « ألا نذوق السمك أو الطير .. هذا هو القانون .. ألسنا رجالاً ؟ »

وتدريجيًا اندمجنا فى الترديد ، ورحنا نكرر هذا القانون الغريب بصوت عال وإيقاع متسارع ، بينما أسخر فى داخلى من كل هذا ..

ـ « ملكُه .. هو بيت الآلام .. »

ـ « ملكُه .. هى اليد التى تصنع .. »

ـ « ملكُه .. هى اليد التى تجرح .. »

ـ « مِلكُه .. هى اليد التى تداوى .. »

كلام لايمكن فهمه عن (هو) الذى لا أدرى كنهه ..

ـ « مِلكُه .. هو البحر العميق المالح .. »

ـ « مِلكُه .. هو الضوء اللامع .. »

وخطر لى تصوّر مرعب .. لابد أن (مورو) بعد ما شوّه هؤلاء الرجال ، ادعى الألوهية أمامهم .. إنهم يمارسون لونًا من العبادة .. لكنى ـ وقد رأيت أسنانهم الحادة ومخالبهم الطويلة ـ لم أكف عن الترديد معهم ..

ـ « مِلكُه .. هى النجوم اللامعة فى السماء .. »

الآن تعودت عيناى الظلمة ، واستطعت أن أرى ذلك الكائن فى السواد .. كان فى حجم الإنسان لكنه مغطى بشعر رمادى كثيف ..

فرغوا من ترديدهم ، فقال مرافقى وهو يشير إلىّ :

ـ « إنه رجل خمسة مثلى » .

مددت يدى ، فانحنى المخلوق الرمادى ووضع مخلبًا مشوهًا يلمس به أصابعى .. كان بوسعى أن أصرخ ألمًا ودهشة .. وفى الضوء الخافت لم يكن له وجه إنسان ولا وحش .. مجرد كتلة من الشعر الرمادى لها ثلاثة ثقوب فى مواضع العينين والفمّ ..

قال لى :

ـ « أنا الناطق بالقانون .. إننى أجلس هنا فى الظلام وأقول القانون .. »

أضاف أحد القابعين على الباب :

ـ « هو كذلك .. الشر هو عقاب من يحطمون القانون .. لا أحد يهرب .. »

- « لا أحد يهرب .. »

كذا رددت الوحوش الأخرى وهى تتبادل النظر الشذر ..

- « البعض يريد أن يطارد الأشياء التى تتحرك .. أن يزحف .. أن يعضّ .. يعضّ عميقًا ويمتص الدم .. هذا سيئ .. ألا نطارد البشر .. هذا هو القانون .. ألسنا رجالاً ؟ .. »

قال وحش آخر :

- « لا أحد يهرب .. »

- « الرغبة قاسية .. البعض يريد أن يغرس مخالبه فى الأشجار .. البعض يريد أن ينبش فى قبور الموتى .. البعض يعض فجأة .. البعض يحب القذارة .. البعض يريد الشجار بضرب الجباه والأظفار .. هذا سيئ .. »

قال الوحش الوردى الشبيه بحيوان (الكسلان) :

- « لا أحد يهرب .. »

- « العقاب أكيد وقاس .. لهذا تعلموا القانون .. »

وهكذا رحنا نردد القانون من جديد ونحن نتأرجح !

★ ★ ★

لم أسمع شيئًا من الضوضاء بالخارج ، حتى صاح أحدهم بحماسة شيئًا لم أتبينه ، وعلى الفور اختفى المحتشدون بالكوخ .. ووثب الشىء القابع فى الظلام هاربًا بدوره ..

وفى اللحظة التالية سمعت نباح كلب .. وسرعان ما غادرت الكوخ وأنا ألوح بعصاى ، وكل أعصابى ترتجف ..

كان حولى عدد لا بأس به من هؤلاء البشر - الوحوش وقد توارت رءوسهم بين ألواح أكتافهم .. وكانوا يلوحون فى رهبة ..

رأيت الوجه الشاحب لـ (مورو) قادمًا من بعيد ممسكًا بالكلب ، وخلفه جاء (مونتجمرى) ومسدسه فى يده ..

نظرت إلى يمينى فوجدت على بعد ستة ياردات ، فتحة فى الجدار يدخل منها ضوء الشمس .. فأسرعت نحوها .. وسمعت (مورو) يصيح :

- « توقف ! .. أمسكوه ! »

لحسن الحظ كانت عقولهم الحيوانية بطيئة ..

هاجمنى (الكسلان) الوردى فضربته بالمسمار فى وجهه القبيح ، ثم وثبت من الفتحة ..

تسلقت المنحدر .. وقفزت لأتدحرج وسط غبار الكبريت .. ثم ركضت حتى وصلت إلى مساحة من الأشجار الكثيفة .. كان الهواء من حولى مفعمًا بالصرخات المنذرة وصوت تهشم الغصون .. بعض المخلوقات تعوى وتزأر ..

ركضت إلى اليمين وواصلت الهرب .. كانت الأرض هنا موحلة لكنى كنت قانطًا ، ووصل الطين إلى ركبتى .. بينما صوت (مونتجمرى) يتعالى ..

خيل إلىّ أنه كان يطلب منى الفرار من أجل حياتى ..

يجب أن أصل إلى البحر لأجد فرصة أغرق بها نفسى ، ولم أدر متى سقطت منى عصاى .. لكنى فقدت أصواتهم على كل حال ..

شعرت بما هو أكثر من السرور الآن .. يبدو أننى فررت منهم .. لاصوت حولى سوى صوت الحشرات ..

وفجأة بدأت الأصوات تتعالى من جديد ..

* * *

١٣ ـ محادثة ..

رحت أركض على حافة البحر .. ونظرت للوراء لأجد مطاردىّ قد وجدونى .. كنت أكثر يأسًا من أن أموت ، وهى مقولة غريبة لكن من يعرفون الخطر يفهمونها بسهولة ..

كانت الشمس الغاربة تلتمع بأشعتها على عينىّ ، والمدّ يتعالى ..

راحوا يتقدمون نحوى ، بينما أقف أنا أرمق دنوهم عاجزًا عن عمل شىء ..

استدرت نحو البحر وتوغلت حتى وصل الماء إلى خصرى ..

صاح (مونتجمرى) :

ـ « ماذا تفعل يا رجل ؟ »

استدرت له .. كان وجهه محمرًا من الجهد والإرهاق ، وشعره الكتانى يتطاير فى الهواء ، ووراءه

جاء (مورو) شاحبًا صارمًا .. ورأيت فى يدى الرجلين سوطين غليظين ..

قلت :

- « ماذا أفعل ؟ أغرق نفسى ! »

سألنى (مورو) بعد ما تبادل النظر مع (مونتجمرى) :

- « لماذا ؟ »

- « هذا خير من أن تعذبنى أنت .. »

- « ولماذا تعتقد ذلك ؟ »

- « ما رأيته هناك .. لقد كان هؤلاء رجالاً فإلام صاروا ؟ إننى لن أصير واحدًا منهم .. »

صاح (مونتجمرى) فى قلق :

- « بحق السماء يا (بندرك) ! كف عن هذا ! »

ورأيت الرجال - الوحوش يتبادلون النظرات كأنما يحاولون فهم ما يقال ..

قال (مورو) بصوت هادئ بعد تفكير قليل :

- « أصغ إلىّ أولاً ثم قل ما تريد قوله .. »

- « وماذا ستقول ؟ »

- « إنها عملية تشكيل بشرية .. تعال للشاطئ وستفهم .. إن الماء بعد المكان الذى تقف فيه عميق وملىء بأسماك القرش .. »

- « ذلك هو طريقى .. قصير أليم .. »

- « إذن انتظر لحظة » .

ورأيت شيئًا لامعًا يخرجه من جيبه ، فيضعه على الرمال ، وقال :

- « هذا مسدسى و (مونتجمرى) هنا سيفعل الشىء ذاته .. سنبتعد إلى المسافة التى تراها آمنة ، ثم تعال لتأخذ هذين المسدسين .. »

- « لا ! لابد أن معكما مسدسًا ثالثًا .. »

- « فكر جيدًا يا (بندرك) .. نحن لم نطلب منك المجىء لهذه الجزيرة ، ولو كنا نشرّح الرجال لكان علينا أن نجلب رجالاً لا وحوشًا .. ثانيًا : أنت كنت تحت تأثير المخدّر وتحت رحمتنا ليلة أمس .. وكان

بوسعنا أن نفعل بك ما نشاء .. لقد أردنا سلامتك ؛ لأن هذه الجزيرة ملأى بالظواهر الغريبة ..

وعلى كل حال : لماذا نقتلك بالرصاص ما دمت تطوعت بإغراق نفسك ؟ »

بدا لى الكلام منطقيًا ، وهنا قال (مونتجمرى) :

ـ « أنت حمار أحمق يا (بندرك) .. اخرج من الماء وخذ المسدسين وتكلم .. ليس بوسعنا عمل ما هو أكثر من هذا .. »

يجب أن أعترف هنا كعادتى أننى لم أكن أثق بـ (مورو) ، بل وكنت أهابه .. لكن (مونتجمرى) كان رجلاً أستطيع فهمه .. قلت بعد تفكير :

ـ « إذن ابتعدا وارفعا أيديكما لأعلى .. »

هزّ (مورو) رأسه :

ـ « لانستطيع هذا .. إن هذا مهين للكرامة أمامهم .. »

ـ « إذن ابتعدا حتى الأشجار .. »

استدار (مورو) و (مونتجمرى) وفرقعا بسوطيهما ليبعدا الرجال ـ الوحوش ، ففرّ هؤلاء بعيدًا إلى الأشجار ..

صعدت إلى الشاطئ فالتقطت المسدسين .. قال (مورو) دون عاطفة فى صوته :

ـ « هذا طيب .. لكنك أضعت أفضل جزء من يومى بخيالك الأحمق » .

وفى احتقار آذانى أدار ظهره و (مونتجمرى) لى ، وابتعدا صامتين عنى .. مشيت وراءهما بين صفوف الرجال ـ الوحوش الذين لم يبتعدوا بعد ..

★ ★ ★

١٤ ـ د. (مورو) يفسر ..

قال لى د. (مورو) بعد ما فرغنا من الطعام والشراب :

ـ « الآن يا (بندرك) سأشرح لك .. يجب أن أعترف بأنك أكثر ضيوفنا دكتاتورية ها هنا ، ولسوف يكون هذا آخر شىء أفعله لأجاملك .. وحين تهدد بالانتحار فى المرة القادمة لن أفعل شيئًا ، بل لعل هذا سيرضينى نوعًا ما .. »

وجلس فى مقعده وبين أنامله البارعة الدقيقة سيجار ، ونظر خارج النافذة ليرمق النجوم .. كانت المسدسات فى متناول يدى طيلة الوقت ..

قال (مورو) :

ـ « أنت قد رأيت المخلوق الذى شرحناه حيًا فى الغرفة الداخلية .. هل أنت مقتنع الآن أنه (البوما) ؟

ـ « إنها (البوما) .. ما زالت حية لكنها ممزقة كما لم أر لحمًا حيًا قط .. »

ـ « دعك من مخاوف الشباب ، فقد كان (مونتجمرى) مثلك يومًا ما .. والآن اصمت ريثما ألقى محاضرتى على مسمعك .. »

وبدأ يتحدث فى لهجة رجل شديد الملل ، سرعان ما بدأ يتحمس شيئًا فشيئًا ..

ومن حين لآخر كنت أجد لمسة سخرية فى صوته :

ـ « إن الرجال الذين رأيتهم لم يكونوا رجالاً .. لم يكونوا رجالاً قط .. هم مجرد حيوانات تمثل انتصار علم الجراحة .. إننى مندهش لأن ما قمت به هنا لم يمارسه أحد من قبل .. أنت تعرف أن الحَوَلَ يمكن إحداثه أو علاجه بالجراحة .. كذا البتر .. وكذا تغيير الأنسجة المخية .. »

ـ « لكن مخلوقاتك القبيحة هذه .. »

هزَّ يده ليسكتنى وأردف :

ـ « صبرًا فأنا لم أبدأ بعد .. كانت هذه نماذج طفيفة للتغيير ، لكن الجراحة يمكنها صنع ما هو أفضل .. هناك بناء كما أن هناك هدمًا .. فى جراحة التجميل يشرحون ثنية من جلد الجبين ويثبتونها على

الأنف المشوّه ، إلى أن تكتسب هذه إمدادها الدموى من الأنف ، عندها يقطعون اتصالها بالجبين .. هذا نموذج لزرع أنسجة من حيوان لنفسه .. وبالمثل يمكن زرع أنسجة من حيوان لحيوان آخر .. لقد نجح (هنتر) فى أن يزرع ساقًا فى عنق الثور .

قلت :

- « كهذه الوحوش على الجزيرة إذن ؟ »

- « نعم .. هذه الوحوش التى رأيتها هنا هى حيوانات تم تغيير شكلها .. إن كل شىء يكمن فى علم التشريح التطبيقى .. لكن ما من أحد امتلك الجرأة كى يمارسه .. وأنا لا أغير فقط شكل الحيوان الخارجى بل أغير كيمياءه الداخلية وفسيولوجيته .. تذكر أطباء العصور الوسطى الذين كانوا يغيرون أشكال البشر ليكونوا متسولين أو غرائب للسيرك ، وما زال جزء من فنهم باقيًا يمارسه الحواة والأطباء الدجالون .. لقد حكى (فكتور هيجو) عن هذا فى روايته (الرجل الضاحك) ..

« أعتقد أنك تفهمنى الآن .. إننى ارتدتُ مجالاً

ارتاده منذ زمن مربّو الخيول والكلاب الذين يبتكرون سلالات جديدة ، وكنت أنا أول من يرتاده مسلحًا بالجراحة الحديثة المعقمة .. »

- « ولكن .. تلك الحيوانات تتحدث ! »

- « قلت لك إننى لا أكتفى بتغيير الشكل .. إن التعليم الأخلاقى هو ببساطة عملية تبديل الغريزة : تبديل غريزة العدوانيّة إلى التضحية بالنفس ، وتبديل الكبت إلى الحماس المتحفظ .. »

بدا لى فى هذه التجربة بعض الشرّ .. وقد اعترف لى بهذا :

- « كان بوسعى أن أحوّل الخراف إلى (لاما) والعكس .. لكن هناك فى المظهر الإنسانى ما يغرى العلم بالتجربة .. على أننى فى مرة أو مرتين قد جربت أنماطًا غير بشرية و ... » .

وصمت برهة ثم قال :

- « تلك الأعوام ! لكم تتصرم سريعًا ! اليوم أضعت يومًا كاملاً أحاول إنقاذك ، والآن أضيع ساعة كاملة أبرر فيها نفسى لك ! »

- « لكنى لا أفهم بعد مبررك لكل هذا الألم الذى تسببه للحيوانات .. »

- « إن موضوع الألم هو ما يفرق بيننا .. فبما أن الألم المرئى أو المسموع يصيبك بالغثيان ، وبما أن آلامك تقودك وتغلف أفكارك عن الخطيئة ؛ ستظل حيوانًا لايفكر فى شىء يزيد غموضًا عما يفكر فيه الحيوان .. »

هززت كتفى معبرًا عن رأيى فى هذه السفسطة .. فقال :

- « إن عقلاً مفتوحًا للعلم يجب أن يجد الألم شيئًا هينًا .. فقط فى كوكبنا يمكن أن يوجد شىء يدعى الألم .. »

وكان يتكلم وهو يمدّ يده إلى مدية صغيرة ، سددها إلى فخذه ثم غرسها ..

ولم يظهر أية علامة على التأثر ..

وقال :

- « أنا لم أسمع قط عن شىء عديم النفع لم يستأصله

التطور عاجلاً أم آجلاً .. والألم قد صار شيئًا لاحاجة للمرء فيه .. إننى رجل متدين يا (بندرك) كما ينبغى لكل رجل عاقل أن يكون .. فقط أنا أرى الدّين بزاوية أوسع منك .. لقد بحثت كثيرًا فى قوانين الوجود ، بينما كنت أنت تجمع الفراشات .. إن الألم ليس سوى علامة على حيوانيتنا ، هذه هى الطريقة العلمية الوحيدة التى أعرفها : سألت سؤالاً ثم بحثت عن إجابة .. والآن وجدت لدىّ سؤالاً طازجًا .. هل هذا ممكن ؟

« إن ماتراه أمامك ليسوا حيوانات بل مشاكل علمية .. » .

« كان هذا منذ أحد عشر عامًا حين جئت لهذه الجزيرة مع (مونتجمرى) وستة من (الكانكاس)(*) .. أذكر الجزيرة الصامتة والبحر الخاوى كما لو كان هذا أمس .. بنينا الحصن وعاش (الكانكاس) فى أكواخ منفصلة ..

« كانت أول تجاربى على خروف ، صنعت منه كتلة من البشاعة والألم .. وحين تفحصته لم أرض عنه ..

(*) أهل (هاواى) الأصليون ..

وكان له ذات ذكاء الخراف ، وكان يرتجف منى هلعًا كلما رآنى حتى إننى قررت إنهاء عذابه ..

« بعد هذا مارست الجراحة على غوريلا كانت لدىّ .. أجريت التحويل بدقة بالغة وقهرت صعوبة تلو صعوبة .. كان (مونتجمرى) يرتجف هلعًا مثلك الآن وهو يسمع صراخ الشىء ..

« وفى النهاية ثار (الكاناكاس) علينا ورحلوا ومعهم اليخت ..

« بعد ستة أشهر علمت المخلوق مبادئ الأبجدية والعدّ ، لكنه كان غبيًا برغم أننى قابلت أحمق منه ..

« فى النهاية التأمت جروحه ، واستطعت أن أقدمه إلى (الكاناكاس) العائدين باعتباره لاجئًا ذا شأن .. قبلوه بصعوبة ، لكنهم بدءوا يعتادونه ، وسرعان ما تعلم منهم الكثير ، وابتنى كوخًا أفضل بكثير من أكواخهم ..

« لقد مات أكثر (الكاناكاس) الآن .. وقد استبدلتهم بهذه المخلوقات .. فلم يعد واحد منهم ليحكى للعالم ما حدث »

ـ « كيف ماتوا ؟ »

ـ « الحق أننى صنعت كائنًا ما .. شيئًا مروعًا مليئًا بالتجاعيد ، يزحف كالأفاعى على الأرض ، وقد فرّ بطريقة ما .. لقد فتك بكل رجال (الكاناكاس) وطاردته و (مونتجمرى) حتى شمال الجزيرة حيث أطلقنا عليه الرصاص .. »

وصمت برهة ثم أضاف :

ـ « وهأنذا مستمر فى تجاربى منذ عشرين عامًا ، لكنى دائمًا أجد ما يجعلنى غير راض ، ويتحدانى ويدفعنى نحو المجهول .. دائمًا أظل بعيدًا عن ذلك الذى أحلم به .. هناك فى عقل هذه الوحوش مخزن متوار للشهوات ينتظر الانفجار فى أية لحظة .. وثمة شىء ما هو الذى أثار رعبك منهم حين رأيتهم فى البداية .. هذا هو ما أحاول أن أقهره فى كل مرة أبدأ فيها تجاربى على حيوان جديد .. هذه الوحوش سريعة التقلب ، وما إن تغفل عيناى عنهم حتى يصحو الوحش داخلهم .. إنهم يخافون هذا المنزل ويخافوننى ، لهذا أستغل هذه النقطة جيدًا .. لست مهتمًا بهم البتة على عكس (مونتجمرى) الذى يميل لبعضهم ..

« يا للوحوش البائسة ! إنهم خلقوا لأنفسهم شيئًا

يدعى (القانون) يغنونه فيما بينهم .. لكن الغضب والشهوات ستعيش وتنتصر فى النهاية ..

تأمل هذه (البوما) .. لقد أجريت عملاً طيبًا على جسدها ومخها ، وأرى أنها ستكون بداية موفقة لمرحلة جديدة ..

« والآن ما رأيك ؟ هل مازلت تخافنى ؟ »

إجابة على هذا السؤال ناولته المسدس ، وقلت :

- « أبقه معك .. »

وتثاءبت ، فقال وهو يبتسم :

- « كان يومك عصيبًا .. لهذا أنصحك بالنوم السريع .. »

ونظر لى مفكرًا لحظة ثم غادر المكان ..

جلست وحدى أغالب الخمول عاجزًا عن التفكير فى شىء ، وبجهد بالغ أطفأت الضوء وغبت فى سبات عميق ..

* * *

١٥ - عن الرجال - الوحوش ..

صحوت مبكرًا وكلمات (مورو) أمام عينىَ واضحة جلية ..

طرق أحدهم الباب وسمعت الصوت الغليظ لتابع (مونتجمرى) - واسمه (ملينج) - فسمحت له بالدخول ، وأنا أمسك بأحد المسدسات فى يدى .. دخل الحجرة ، وهو يحمل صحفة عليها خضر مسلوق وأرنب سيئ الطهى .. وتبعه (مونتجمرى) الذى ابتسم لى ابتسامة جانبية ..

تحدثت مع (مونتجمرى) عن الوحوش الموجودة هنا لأتبين ما لم أفهمه بعد ، خاصة كيفية منعهم من الفتك بالرجلين أو تمزيق بعضهم البعض .. شرح لى أن سلامة (مورو) هى نتيجة وهن عقل هذه الوحوش ، فبرغم ذكائهم المتزايد إلا أنهم يحملون أفكارًا ثابتة عن (مورو) .. إنهم منومون مغناطيسيًا حقيقة .. ولقد غرس الأخير تلك الأفكار فى عقولهم بما يقهر أية محاولة للتشكك أو شق عصا الطاعة ..

الخطر الوحيد كان أن تتذوق تلكم الوحوش طعم الدم . فلكم من مشاكل يمكن لهذا المذاق أن يسببها ، وقال لى (مونتجمرى) إن القانون ـ خاصة مع آكلات اللحوم ـ يضعف تأثيره ليلاً ، عندها يجرؤ الوحوشُ على ارتكاب أعمال ما كانوا ليحلموا بها نهارًا .. إنهم يخالفون القانون فقط فى الظلام ، ولهذا طاردنى الرجل ـ الفهد ليلة أمس .. أما فى الصباح فيسود جو من الاحترام والاستسلام ..

عرفت من (مونتجمرى) كذلك أن هناك ستين من هذه الكائنات على ظهر الجزيرة ، ولا نعدّ ها هنا الوحوش الصغيرة غير ذات المظهر البشرى التى تتوارى بين الأشجار ، وعددها حوالى مائة وعشرين إلا أن أكثرها مات ..

قال لى (مونتجمرى) إن الوحوش تتكاثر لكن ذريتها غالبًا ما تفنى ، وتلك الذرية لا تشبه الآباء فى صفاتها المكتسبة ..

إن عينى غير مدربة على التفاصيل ، ولا أستطيع أن أرسم ؛ لكن أهم ما يلفت النظر فى هذه الوحوش هو عدم التناسق بين قصر أرجلهم وطول أجسادهم ..

يثير الانتباه كذلك ذلك المنحنى غير الإنسانى للعمود الفقرى ..

ذلك الانحناء للأمام الذى يجعل الإنسان مميزًا وجميلاً ..

كانوا مشعرين بشدة ، ولهم فكوك بارزة وأنوف ضخمة .. وعيونهم دائمًا لها لون غريب أو موضع أغرب ..

لقد حافظ كل منهم على خواص جنسه الأصلى برغم كل شىء ، ولم تنجح السمة الإنسانية فى إخفاء الدب أو الخنزير ..

كان أكثرهم إثارة للرهبة هو الرجل : الفهد .. بعد ذلك تأتى المخلوقات الشبيهة بالثيران التى رأيتها فى أثناء إفراغ محتوى اللنش .. ثم ذو الشعر الفضى الناطق بالقانون .. بعد هذا يجىء مخلوق يشبه (الساتير) هو مزيج من قرد وماعز معًا(*) .. ثمة رجال خنازير ، وكائن مزيج من وحيد القرن والثور ..

(★) الساتير من الكائنات الأسطورية فى الميثولوجيا اليونانية ، ويشبه ماعزًا يمشى على قدميه الخلفيتين ، وفيما بعد اقترنت صورته لدى الرسامين بالشيطان ..

ثمة مخلوقات ذئبية ورجل من طراز (سانت برنارد) ، وامرأة تشبه القط كريهة ولها رائحة شيطانية ، هى مزيج من الثعلب والدب .. وقد كرهتها منذ اللحظة الأولى ..

كنت أهابهم كثيرًا فى البداية ثم بدأت أعتادهم مثل (مونتجمرى) .. وكان هذا قد رأى حثالة البشر حتى صار يجد راحته أكثر مع الوحوش ، واعتاد أن يذهب لإفريقيا فى كل عام ليبتاع الحيوانات من مراسل (مورو) هناك ..

* * *

أقول إننى اعتدت هؤلاء القوم ، وتدريجيًا صرت أحاول تذكر كيفية اختلاف كل منهم عن البشر ..

أحيانًا أنظر لوجه أحدهم وأتخيل أننى رأيته فى مكان ما فى (انجلترا) ..

لكنى أحيانًا كنت أصطدم بالحقيقة السافرة الصادمة .. أمرّ بأحدهم يجلس على باب عرينه ، فإذا به يفتح فاه ويتثاءب كاشفًا عن أسنان كالخناجر ومخالب فى ذراعيه كالمدى .. أو ألقى امرأة منهم فى طريق ضيق فأجد ـ لشدة ذعرى ـ أن حدقتى عينيها مشقوقتان طوليًا ..

* * *

١٦ ـ كيف تذوق القوم الدم ..

إن قلّة مهارتى ككاتب تخوننى ، وإننى لأبتعد عن خيط قصتى ..

لقد اقتادنى (مونتجمرى) بعد الإفطار لأرى فتحة البركان ، التى يصّاعد منها البخار والتى تراها عند الدنو من الجزيرة ..

سمعنا أرنبًا يصرخ ، فتصلبنا .. لكننا لم نر شيئًا ، لذا واصلنا طريقنا بعد هذا ونسينا الحادثة ..

بعد هذا واصلنا المشى فإذا بنا نجد شجرة قد تمزق لحاؤها بفعل مخالب طويلة .. تأملها (مونتجمرى) باهتمام وغمغم :

ـ « ألا نغرس مخالبنا فى لحاء الأشجار .. هذا هو القانون .. لا أعتقد أنهم يهتمون به كما يدعون ! »

قابلنا الـ (ساتير) منهمكًا فى التهام بعض الثمار .. كان وجهه كوجه الأغنام ، وصوته كثغاء الماعز ، وقدماه كقدمى الشيطان .. فلما رآنا قال :



قابلنا الـ (ساتير) منهمكًا فى التهام بعض الثمار .. كان وجهه كوجه الأغنام ، وصوته كثغاء الماعز ، وقدماه كقدمى الشيطان ..

ـ « التحية للآخر ذى السوط » .

كان يتحدث عن (مونتجمرى) .. فقال له هذا الأخير مشيرًا لى :

ـ « ثمة ثالث ذو سوط كذلك ، ويجب أن تفكر فيه .. »

نظر لى الـ (ساتير) والرجل ـ القرد فى فضول .. وقالا :

ـ « الثالث ذو السوط الذى يمشى باكيًا فى البحر .. إن له وجهًا طويلاً شاحبًا .. »

أضاف (مونتجمرى) :

ـ « وكذلك له سوط طويل رفيع .. »

قال الـ (ساتير) :

ـ « أمس نزف وبكى .. أنت لا تنزف ولا تبكى .. السيكلا ينزف ولا يبكى » .

صاح (مونتجمرى) :

ـ « أيها الشحاذ الأحمق ! ستنزف وتبكى إن لم تحترس ! »

وتأبط ذراعى ليبعدنى عنهما ، وسمعت الرجل ـ القرد يقول :

ـ « أمس سألنى عن شىء يأكله .. لم يكن يعرف .. »

وراح يتهامس مع الـ (ساتير) بصددى ..

* * *

توقف (مونتجمرى) وتأمل جسد الأرنب الصغير الذى تمزق إلى أشلاء ، وقد قُضمت عظمة ظهره الفقرية ، فصاح (مونتجمرى) :

ـ « رباه ! »

وانحنى إلى الأمام ، والتقط بعض الفقرات المهشمة ليفحصها بعناية ، فقلت له :

ـ « يبدو أن بعض وحوشكم تذكرت الماضى .. إننى لا أحب هذا .. ولقد رأيت مشهدًا مماثلاً فى اليوم الأول الذى جئت فيه هنا .. »

بدت عليه الدهشة ، وتساءل :

ـ « أحقًا ؟ ماذا رأيت بالضبط ؟ »

ـ « أرنبًا انتزع رأسه خلف الحصن ، فى أول يوم

جئت فيه .. بل إننى أكاد أعرف من فعلها .. لقد رأيت أحد وحوشكم يشرب من النهر فى ذلك اليوم وبعد الاغتيال مباشرة .. »

ـ « هذا هو أسلوب اللواحم .. بعد الافتراس تشرب .. إنه مذاق الدم كما تعرف .. هل يمكنك تعرّف هذا الوحش ثانية ؟ »

ـ « يمكننى ذلك بالتأكيد .. »

قال فى شرود وهو يستوثق من حشو مسدسه :

ـ « لقد حرصنا على ألا تلتهم هذه الوحوش أى شىء يجرى على الأرض ، وها هو ذا أحدهم قد ذاق الدم .. لقد قارفتُ اليوم خطأ جسيمًا إذ جعلت تابعى يطهو لك أرنبًا ، والغريب أننى لمحته يلعق يده بعد الطهو ، ولم أعلق على هذا أهمية كبرى . وأرى أنه لابد من إبلاغ (مورو) .. »

* * *

اهتم (مورو) بالموضوع ، وبدت عليه علامات الخطورة أكثر من (مونتجمرى) بكثير .. ويجب أن أقول هنا إن جدّيتهما أثارت قلقى ..

قال لـ (مونتجمرى) :

ـ « ليتك قاومت شهيتك لأكل اللحم .. وبذلك كنت تقينا هذه المشاكل »

ـ « لقد كنت أحمق مخيفًا ، لكن ما كان قد كان .. وعلى كل حال أنت سمحت لى بجلب هذه الأرانب معى .. »

ـ « إن هذا الموضوع يجب أن يسوّى سريعًا .. »

وعند الظهيرة اتجهت مع الرجلين والتابع إلى أكواخ الوحوش ، وكان ثلاثتنا مسلحين و (مورو) يحمل على كتفه نفير ماشية كبيرًا ..

عبرنا الأخدود حيث يتصاعد البخار الساخن ، وفى النهاية وصلنا لمساحة خالية تغطيها مادة صفراء كأنها الكبريت ..

أطلق (مورو) صياح النفير فحطم الصمت الناعس للعصر ، وكاد الصوت يثقب مسامعنا .. يبدو أن رئتيه قويتان حقًا ..

وبعد قليل سمعنا صوت تهشم الغصون ، ثم بدأت

المخلوقات تظهر من الجهات الستّ ، فلم أستطع أن أمنع قشعريرة سرت فى ظهرى ..

احتشدوا حول (مورو) ، وراحوا يرددون لاشعوريًا النصف الأخير من القانون :

ـ « ملكه .. هى اليد التى تجرح .. »

ـ « ملكه .. هى اليد التى تداوى .. »

صاروا الآن على بعد ثلاثين ياردة ، فجثوا على ركبهم ، وراحوا يهيلون على رءوسهم الغبار الأصفر .. تخيل المشهد لو استطعت .. إنه مشهد لاتراه إلا فى أسوأ كوابيسك ..

عدّ (مورو) الرءوس ، فوجد أن ثلاثة وحوش ناقصة .. أعاد نفخ النفير فجاء الرجل ـ الفهد والرجل ـ القرد ..

سألهم (مورو) :

ـ « أين الناطق بالقانون ؟ »

حنى الوحش رمادى الشعر رأسه ، وتمرغ فى التراب ، فأمره (مورو) بأن يتلفظ بالكلمات .. راح هذا يردّد المقاطع حتى وصل إلى :

ـ « ألا تأكل السمك أو الطير .. هذا هو القانون »

هنا صاح (مورو) رافعًا ذراعه :

ـ « قفوا ! »

وهنا ساد صمت رهيب .. واضح أنهم يعرفون ويتوقعون ما سيحدث .

قال (مورو) بصوت حازم .

ـ « هناك من خرق القانون .. من هو ؟ »

ونظر حوله فى حزم ، فتحاشوا نظراته .. وغمغم أحدهم .

ـ « لا أحد يهرب .. لا أحد .. »

نظر (مورو) لعينى الرجل ـ الفهد ، وبدا كأنما ينتزع روح المخلوق ذاتها .

وقال ضاغطًا على كلماته :

ـ « من يخرق القانون يُعدْ إلى بيت الآلام .. »

كان الرجل ـ الفهد على ركبتيه الآن ، وعيناه تلتمعان .. أنا واثق من أن جنون الخوف هو سبب ما حدث بعدها .. فى اللحظة التالية وثب الرجل ـ الفهد

على (مورو) ، فتراجع هذا للوراء ليتفادى الهجمة ، وتعالى من ورائى صوت عواء وصراخ .. حسبت أنها ثورة عامة .. ورأيت عينى الخنزير .. الضبع تلتمعان فى وحشية ، وعرفت أنه يوشك على مهاجمتى .. ثم دوّى صوت طلقة من مسدس (مورو) .. وتفرق المحتشدون ..

بعد لحظة كنت أركض وسط الزحام ، أبحث عن الرجل ـ الفهد الذى كان يتقدمنا جميعًا ، بينما ألسنة الوحوش تتدلى لهاثًا .. الخنزير ـ الضبع يصرخ حماسًا ، والمرأة ـ الذئب تجرى فى خُطًى واسعة .. (مورو) يلهث وشعره الأبيض يتطاير ..

استمرت المطاردة نحو ربع ميل ، وأخيرًا وجدنا أنفسنا وسط الأشجار ، وراحت الأغصان تضرب وجوهنا ، والأشواك تجرحنا ..

ضحك الخنزير ـ الضبع وقد أخذته نشوة الصيد :

ـ « لا أحد يهرب .. لا أحد » .

ورأينا الوحش يركض على أربع فوق الصخور ،

ويعوى من فوق كتفيه .. له وجه آدمى لكنه يتصرف كحيوان يتمَ صيده ..

تحوّل المطاردون من عمود إلى خط رفيع .. والخنزير ـ الضبع يركض بجوارى ، وهو يكشر ويرفع خطمه ، ولا يكف عن اختلاس النظر لى ..

لم أكن أجرؤ على التخلى عن المطاردة ، حتى لا يسبقنى (مورو) و (مونتجمرى) وأجد نفسى وحيدًا مع هذه الصحبة المروعة ..

فى النهاية ، استطعنا أن نحاصر الوحش المرهق ، وقادنا (مورو) فى خط غير منتظم نحو الضحية ..

لقد سامحت البائس على كل ما سببه لى من ذعر ..

أخيرًا وجدناه مكورًا على نفسه .. وفى هذا الوضع الحيوانى وقد تشوه وجهه ذعرًا ، شعرت بحقيقة إنسانيته ، وهذا كلام يبدو متناقضًا ، لكننى لا أجد تعبيرًا أفضل ..

إنهم سيعيدونه إلى منزل الآلام ، حيث يلقى كل الأهوال من جديد ، ودون تردد أخرجت مسدسى ..

صوبته ما بين عينيه وأطلقت الرصاص ، وفى اللحظة ذاتها وثب الضبع ـ الخنزير ملهوفًا عليه ، وغرس أسنانًا جشعة فى عنقه ..

ـ « لا تقتله يا (بندرك) ! .. لا تقتله ! »

قالها (مورو) وهو يجرى ما بين الأشجار نحوى ، وبسوطه أبعد الوحوش المتحمسة التى أحاطت بالجسد الهامد ..

وهتف :

ـ « سحقًا لك يا (بندرك) ! »

ـ « لقد كان انفعالاً لحظيًا .. حقًا لم أتعمد قتله .. »

وشعرت بالغثيان من فرط الانفعال ، وابتعدت عن المشهد الدامى .. أسمع الرجال ـ الثيران يجرون الجثة نحو البحر ..

كانت سماء المساء هى خلفية المشهد ..

هنا أدركت عبثية ما يحدث على هذه الجزيرة .. بشكل ما أوقن أن الضبع ـ الخنزير متورط بشكل معيّن فى افتراس الأرانب .. هنا صراع ما بين الغريزة

والعقل فى أبسط صوره .. يا للوحوش المسكينة ! حقًا إن (مورو) قاس إلى حدٍّ لا يمكن تصوره .. ولأية غاية ؟ »

لقد كانت غرائز هذه الوحوش ـ قبل التحول ـ تناسب بيئتهم تمامًا ، وكانوا سعداء لكونهم أحياء .. فجأة سقطوا فى شراك الإنسانية وطاردهم خوف لاينتهى من القانون الذى لا يستطيعون فهمه ..

لو كان لـ (مورو) هدف محترم لتعاطف معه ولو قليلاً .. بل كنت سأفهم لو كان هدفه الوحيد هو الإيذاء .. لكن نظرياته الغامضة جعلته يسلب هذه الحيوانات حيوانيتها ، لتعيش عامًا كاملًا فى عذاب ، ثم تموت فى ألم ..

إن الشراسة الحيوانية كانت تحركهم ، بينما القانون يبعدهم عن عراك قصير ينهى مشاكلهم ..

لقد بدأ خوفى من الرجال ـ الوحوش يتلاشى ليحل مكانه خوفى من (مورو) .. ووصلت بهذا الخوف إلى درجة المرض ..

* * *

١٧ ـ الكارثة ..

مرت ستة أسابيع قبل أن أنسى كل شعور سوى مقتى لهذه التجربة ..

كل ما أردته هو ترك هذه الجزيرة ، والعودة لصحبة البشر المريحة .. لم تزدد صداقتى مع (مونتجمرى) أكثر ، لأن معاشرته الطويلة للوحوش جعلته مشوهًا بالنسبة لى ..

صرت أقضى على الشاطئ ساعات طويلة بانتظار شراع يحررنى ، لم يظهر قط ..

وذات يوم حدثت كارثة مريعة غيَّرت كثيرًا مما أحاط بى ..

أعتقد أننى صحوت يومها فى السادسة ، وخرجت لباب الحصن أستمتع بهواء الصباح .. مرّ بى (مورو) فحيانى ، وسمعته يفتح باب المعمل ..

زئير (البوما) يتعالى وهى تبدأ يومًا جديدًا من العذاب .. قابلته بصراخ طويل كأنها امرأة مشاكسة ..

فجأة حدث شىء لم أفهمه .. صوت شىء يسقط .. ثم رأيت وجهًا مفزعًا لا يمت بصلة للبشر ولا الحيوان ، يندفع نحوى ..

مددت يدى لأتوقّى الضربة التى كسرت ذراعى ، وأسقطتنى على الأرض .. كان الوحش العظيم ملفوفًا فى أربطة بيضاء ملطخة بالأحمر ، ووثب من فوقى مبتعدًا ..

حاولت أن أجلس ، لكنى لم أستطع الاستناد إلى ذراعى المهشمة ، وظهر (مورو) والدم ينزف من جبينه ، وفى يده مسدس ..

لم ينظر لى بل اندفع بحثًا عن (البوما) الهاربة ..

لقد توارت بين الأشجار ، بينما (مورو) يركض وراءها .. وأطلق رصاصة لم تصبها ..

ظهر (مونتجمرى) ومسدسه فى يده .. صاح دون أن يلاحظ إصابتى :

- « رباه ! هذا الوحش حرّ .. لقد مزق السلسلة المربوطة إلى الجدار ! ماذا بك ؟ »

- « كنت جوار الباب حين .. »

دسّ سلاحه فى جيبه ، وتحسس ذراعى ثم غمغم :

- « إنه مكسور .. »

وضمد ذراعى وعلّقها إلى عنقى .. وأخبرنى أنها ستُشفى ..

قال شاحب الوجه :

- « لا أرى ولا أسمع شيئًا عنه .. »

وتوقف لحظة ، ثم أردف وهو ينظر عبر النافذة :

- « سأحاول اللحاق به .. سأترك لك مسدسًا آخر .. »

ووضع السلاح على المنضدة أمامى ، وغادر المكان تاركًا جوًا من التوتر وراءه .. لم أطق البقاء حيث أنا ، فغادرت الحصن إلى الخارج ورحت أرمق الليل البهيم والأشجار البعيدة ..

أذرع المكان كالديدبان متسائلاً عما يحدث .. ذراعى أقل ألمًا لكنها أكثر سخونة .. ومن بعيد سمعت طلقة رصاص .. صرخة .. ثم الصمت ..

ركضت إلى الركن لأجد (مونتجمرى) قرمزى

الوجه ، مبعثر الشعر ، وعلى وجهه علامات الهلع الشديد ، وخلفه كان تابعه (ملينج) وعلى شفتيه لطخ داكنة غريبة ..

سألنى (مونتجمرى) لاهثًا :

ـ « هل عاد ؟ »

ـ « من ؟ (مورو) ؟ لا .. »

دخل إلى الحصن منهكًا وغمغم :

ـ « رباه ! إنهم مجانين جميعًا .. كلهم جنّوا .. ماذا حدث ؟ »

وزحف إلى الغرفة وجلس على مقعد ، على حين افترش (ملينج) الأرض وراح يحملق كالكلب فى لاشىء ..

بعد دقائق حكى لى (مونتجمرى) ما حدث .. لقد خرج فى إثر الفارّين ، وكان اقتفاء الأثر سهلاً ، فهو يرى بقع الدم التى خلفتها (البوما) وبقايا أربطتها المتعلقة بالأغصان .. بعد دقائق لحق به (ملينج) حاملاً فأسًا .. كان منهمكًا فى قطع الأغصان حين سمع الصراخ ، ولم يكن قد سمع شيئًا عن موضوع الـ (بوما) ..

راح يقتفى الأثر مع مساعده .. وفجأة قابل الرجلين ـ الخنزيرين يرقصان وقد تلوثا بالدم .. توقفا وراحا ينظران له بوجهين شرسين ففرقع بسوطه ليبعدهما .. إذا بهما يثبان عليه ..

كان هذا غريبًا .. فما من وحش تجاسر من قبل على هذا ، وأطلق الرصاص على رأس أحدهما ، أما الآخر فوثب عليه (ملينج) وأنشب أسنانه فى عنقه ..

وحين انتهت المعركة كانا قد قضيا على الوحشين ، لكن (مونتجمرى) وجد عسرًا شديدًا فى انتزاع (ملينج) بعيدًا ..

وفى طريقهما قابلا رجلاً ـ وشقًا يعرج بسبب جرح فى ساقه .. لم ينتظر (مونتجمرى) ليفهم أكثر ، فقد كان الوحش ملوث الوجه بالدم ..

وأطلق الرصاص بلا رحمة على الحيوان ..

سألته :

ـ « ما معنى كل هذا ؟ » .

هزّ رأسه ولم يقل شيئًا .

* * *

١٨ـ العثور على (مورو) ..

قلت لـ (مونتجمرى) :

ـ « لابد أن شيئًا قد حدث لـ (مورو) .. شيئًا خطيرًا وإلا لكان قد عاد قبل هذا ، وواجبنا أن نعرف أية كارثة حدثت .. »

بعد تفكير وافقنى (مونتجمرى) ، وتسلحنا نحن الثلاثة ، وانطلقنا .. لم يكن (ملينج) مسلحًا بالمعنى الدقيق للكلمة ، فقد سقط فأسه منه فى أثناء صراعه مع الرجل ـ الخنزير ، لكن أسنانه كانت سلاحه فى أى قتال ..

كان (مونتجمرى) متعكر المزاج مكفهر الوجه .. بينما يدى اليسرى معلقة إلى عنقى والمسدس فى يدى اليمنى ..

فجأة تصلب (ملينج) وراح يصغى ، وسمعت بدورى صوت خطوات تدنو منا .. ثم صوتًا عميقًا يقول :

ـ « هو ميت .. »

قال آخر :

ـ « هو ليس ميتًا .. »

رددت أصوات أخرى :

ـ « قد رأينا .. قد رأينا .. »

صاح (مونتجمرى) :

ـ « هالو .. هناك ! »

أمسكت بمسدسى وصحت به :

ـ « تبًا لك ! »

ساد الصمت إلا من صوت تهشم الأغصان ، ثم أحاطت بنا نصف دستة من الوجوه .. ومن حلقة زأر (ملينج) .. استطعت سماع زئير الرجل ـ القرد ، ورأيت الناطق بالقانون والشعر الرمادى يحفّ بخديه وحاجبيه الكثين ..

عيناه الحمراوان تنظران لنا بفضول وسط الخضرة .. ولعدة دقائق ساد الصمت حتى قال (مونتجمرى) وهو يغالب الفواق :

ـ « من قال إنه ميت ؟ »

نظر الرجل ـ القرد شاعرًا بالذنب إلى الناطق بالقانون ، وقال :

ـ « هو ميت .. لقد رأوه .. »

لم يكن فى هذا ما يثير الرعب .. إن هذه الوحوش مندهشة حائرة مثلنا بالضبط .. وسألهم (مونتجمرى) :

ـ « وأين هو ؟ »

ـ « وراءنا ! »

وتساءل الرجل ـ القرد :

ـ « هل هناك قانون الآن ؟ هل هو مات فعلاً ؟ هل هناك قانون أيها الآخر ذو السوط ؟ »

قال (مونتجمرى) وهو يدير عينين غبيتين نحوى :

ـ « إنه ميت .. هذا واضح .. »

هنا بدأت أفهم مجرى الأمور ، لذا خطوت أمام (مونتجمرى) ورفعت صوتى :

ـ « يا أطفال القانون ! إنه ليس ميتًا ! لقد غيّر جسده .. أنتم لن تروه لفترة لكنه هناك يراقبكم .. هابوا القانون وكونوا حذرين ! »

ونظرت لهم بحدة فتراجعوا .. قال الرجل ـ القرد وهو يخفض عينيه ويتوارى خلف الأشجار :

ـ « هو عظيم .. هو جيد .. »

عدت أسألهم :

ـ « هل من شىء آخر ؟ »

ـ « الشىء الذى ينزف ويجرى صارخًا .. هو ميت .. »

هنا غمغم (مونتجمرى) :

ـ « عظيم ! »

وكان لا يفهم بعد سرّ إنكارى لموت (مورو) .. سألت الرجال :

ـ أرونى أين جسده الذى تخلص منه .. لقد خالف بعضكم القانون ولهذا سوف يموتون .. »

أشار لى الناطق بالقانون إلى اتجاه ما وقال :

ـ « من هذا الطريق أيها الآخر الذى يمشى على البحر .. »

وشققنا طريقنا وسط الأغصان والنباتات الزاحفة ، وفجأة برز لنا وحش يقطر منه الدم يبغى الوثب علينا .. أطلق (مونتجمرى) الرصاص فأخطأ هدفه ، عندها استدار طالبًا الفرار .. وازداد هياج الوحش ..

أطلقت رصاصة على وجهه الدميم ، فرأيت ملامحه تتلاشى فى اللهب لكنه واصل الاندفاع نحو (مونتجمرى) .. اعتلاه فى هلع الموت ، وأسقطه أرضًا وسقط فوقه ..

وكذا وجدت نفسى أرمق الوحش الميت ، و (مونتجمرى) المنهك على الأرض يحاول النهوض بمشقة ..

صحت بالناطق بالقانون وأنا أشير إلى الوحش الميت :

ـ « أترون ؟ ما زال القانون حيًا .. هذا ما أصابه من جراء مخالفة القانون .. (إنه يرسل النار التى تقتل) .. »

وواصلنا المسير ..

فى النهاية وجدنا الجسد المشوه الممزق للبوما .. وعلى بعد عشرين ياردة كان جسد (مورو) راقدًا على وجهه وسط الخوص ، وقد انتزع أحد ذراعيه من مكانه وشعره الأبيض معجونًا بالدم .. وكان وجهه ممزّقًا بمخالب (البوما) ..

لكننا لم نجد مسدسه برغم البحث المدقق ..

وبمعونة الرجال ـ الوحوش حملنا (مورو) إلى الحصن .. كان الليل قد أوغل ، ومن بعيد سمعنا الوحوش من بعيد تزأر وتهدر .. لكنها لم تهاجمنا ..

* * *

وفى الحصن أرقدنا جسد (مورو) على الخشب فى الفناء ، ثم اتجهت و (مونتجمرى) إلى المعمل حيث وضعنا نهاية لحياة كل ما وجدناه حيًا هناك ..

* * *



فى النهاية وجدنا الجسد المشوه الممزق للبوما .. وعلى بعد عشرين ياردة كان جسد (مورو) راقدًا على وجهه وسط الخوص ..

١٩ ـ إجازة مصرف (مونتجمرى) ..

حين تم هذا ، واغتسلنا وأكلنا ، اتجهت و (مونتجمرى) إلى الغرفة كى نناقش وضعنا الحالى ..

كان (مونتجمرى) واقعًا بشدة تحت تأثير شخصية (مورو) ولم يكن يعتبره قابلاً للموت .. وكانت مشكلته الآن هى زوال الأمور التى صارت طبيعية فى الأعوام العشرة السابقة التى أمضاها على الجزيرة ..

كان شاردًا يجيب عن أسئلتى فى خرق ، ويقول :

ـ « هذا العالم الأحمق .. لم تكن لى حياة قط ، وإننى لأتساءل متى تبدأ ؟ ستة عشر عامًا يحركنى أساتذتى كما يريدون .. فى (لندن) كنت أكافح كى أشق طريقى فى الطب .. طعام سيئ .. مسكن قذر .. ثياب متسخة .. ثم جئت إلى هذه الجزيرة لأمضى عشرة أعوام بلا جدوى .. هل أنا مجرد فقاعة صابون ينفخها طفل ؟ » .

قلت له دون أن أعلق على خواطره المضطربة :

- « ما يجب التفكير فيه هو كيفية الخروج من هذه الجزيرة ؟ »

- « وما جدوى الخروج ؟ ولأين أذهب أنا المنبوذ ؟ »

- « ستكون هذه خطتنا غدًا .

كنت قد أزمعت أن نحرق جسد (مورو) غدًا .. لكن ماذا عن الوحوش ؟

قال لى :

- « لا يمكننا قتلهم جميعًا .. لكنهم سيرتدّون إلى طبيعتهم .. أعرف أنهم سيرتدّون إلى طبيعتهم .. »

ثم صاح فى مرح ، وهو يتجه إلى الباب مترنحًا :

- « إننى مرغم على الانتحار غدًا .. أما اليوم فهى إجازة المصرف .. »

واستدار خارجًا إلى ضوء القمر ، ورأيت ثلاثة مخلوقات تلحق به ، ورأيت (ملينج) يلحق به بدوره ، ليلتحم الكل فى بقعة سوداء واحدة ..

اتجهوا إلى الغرب ، ولم يكن (مونتجمرى) فى حالة طبيعية .. كان يحمل زجاجة فى يده يقدمها للمخلوقات ، وصاح :

- « غنوا .. غنوا معى ! سحقًا لـ (بندرك) العجوز ! »

رأيت البقع السوداء تتحول لخمسة أشكال متباعدة .. وسمعتهم يرددون وراءه ما يقول ..

أغلقت الباب بإحكام ، واتجهت إلى حيث كان (مورو) راقدًا جوار آخر ضحاياه :

الكلاب واللاما ، ووجهه هادئ تمامًا بعد الموت ..

جلست جواره ورحت أرتب خططى ..

فى الصباح سأضع بعض المؤن فى قارب نجاة وبعد ما أشعل النار فى المحرقة أعود إلى البحر ثانية .. لن أستطيع أن أقدم عونًا ما لـ (مونتجمرى) فهو ينتمى لعالم هذه الوحوش أكثر مما ينتمى لعالم البشر ..

لابد أننى أمضيت ساعة أو أكثر فى التفكير ، حتى سمعت صراخًا قادمًا من الخارج من عدة حناجر منتشية .. صوت ضربات قوية وارتطام بالخشب ..

لكننى لم أهتم بها .. كنت أتفحص المؤن على ضوء مصباح الكيروسين ..

كان هناك (جركن) وقود كبير .. وعلب بسكويت عديدة ..

ثم إننى خرجت إلى (مورو) الذى صارت جروحه الآن سوداء كالليل فى الظلام ، وأذكر أننى رأيت وهجًا أحمر يلتمع من مكان ما ، لكنى ظننته خداعًا بصريًا فلم أهتم به كثيرًا ..

بدأ ضوء النهار يزحف ..

وفجأة سمعت صوتًا كالشجار ، وصرخة شرسة ، ثم ضوضاء أثارت اهتمامى مما جعلنى أرهف السمع أكثر .. وهنا ـ كسكين تقطع حيرتى ـ سمعت رصاصة مسدس ..

ركضت إلى الخارج ، وعند الشاطئ كانت هناك نار تشتعل فى ضوء الفجر ، جوارها أشكال تصطرع ..

دنوت أكثر فرأيت (مونتجمرى) ساقطًا على الأرض يصرخ ..

أطلقت رصاصة فى الهواء .. وسمعت صراخًا ، ومن يقول :

ـ « السيد ! »

وتحولت الكتلة السوداء إلى أجزاء منفصلة ، ثم فرّت

الوحوش عبر الشاطئ .. استدرت للأكوام السوداء على الأرض .. (مونتجمرى) والوحش الرمادى الناطق بالقانون .. كان ميتًا لكنه ما زال ينشب مخالبه فى عنق (مونتجمرى) .. وجوارهما (ملينج) راقدًا على ظهره وحلقه مفتوح ممزق .. كان ميتًا ..

تأملت (مونتجمرى) مسودّ الوجه لا يكاد يتنفس ، فرششت على وجهه من ماء البحر ، وأرحته على صدر معطفى ..

لعنت جهلى بالطبّ .. وتأملت المكان .. كان هناك خشب محترق فى كل مكان ، وتساءلت عن المكان الذى جاء منه (مونتجمرى) بالحطب ..

بدأت السماء الشرقية تصطبغ بلون أحمر ..

وهنا سمعت فحيحًا خلفى فاستدرت مسرعًا .. رأيت دخانًا أسود يتصاعد من الحصن ، ثم نيرانًا حمراء تلاها اشتعال السقف .. وخرج لسان من لهب من نافذة حجرتى ..

على الفور عرفت ما حدث .. تذكرت أننى أوقعت المصباح الكيروسينى على الأرض حين غادرت الحصن مسرعًا ، وأثار ذعرى أننى لن أستطيع أخذ شىء معى من الحصن .

نظرت إلى قاربى النجاة اللذين أزمعت الهرب بأحدهما ، فإذا بهما قد اختفيا ! رأيت فأسين قرب الرمال مختلطين بخشب محطم .. لقد أحرق (مونتجمرى) القاربين ؛ كى ينتقم لنفسه ، ويمنع كلينا من العودة للبشرية !

اعترتنى موجة غضب حتى أوشكت أن أحطم رأسه الأحمق ..

فتح عينيه ببطء ووهن ونظر للفجر ، ثم همس :

- « أنا آسف .. إنها نهاية عالمى السخيف .. يا لها من فوضى ! »

ثم ازداد ثقل جسده .. لقد مات ..

فقط هنا بردت النار فى صدرى ، وتركت رأسه يستريح على الرمال ، ونظرت للحصن الذى يحترق فى صخب .. الدخان الأسود يتصاعد الآن فوق الأشجار وفوق أكواخ القوم ..

جاء ثلاثة رجال - وحوش لى .. كانوا ينظرون لى بعيون غير ودود ، ويتقدمون فى تردد إلى حيث جلست ..

* * *

٢٠ - وحدى مع الوحوش ..

فى جيبى كان المسدس وقد نقصت طلقتان من خزانته ، ولى ذراع عاجزة ..

نظرت للوحوش بحدة ، ثم تقدمت بضع خطوات وتناولت السوط الواقع على الأرض وفرقعت به :

- « التحية ! انحنوا ! »

ترددوا فى الطاعة .. ثم ركع أحدهم ببطء .. وتلاه الآخران ..

قلت وأنا أضع قدمى على صدر الناطق بالقانون :

- « لقد خالفوا القانون لذا قتلتهم جميعًا .. حتى الناطق بالقانون ، وحتى الآخر ذى السوط .. عظيم هو القانون ! »

غمغم أحدهم وهو يتأمل الجثتين :

- « لا أحد يهرب .. »

التقطت أحد الفأسين ولوحت به ، ثم انحنيت على جسد (مونتجمرى) وأخذت مسدسه الذى بقيت فيه

طلقتان .. تحسست جسده فوجدت فى جيبه ست طلقات .. دسستها فى جيبى بدورها ..

- « خذوه وارموه فى البحر ! »

كانوا مازالوا يخشون (مونتجمرى) ؛ لكنهم يخشون السوط أكثر .. فى النهاية رفعوه واتجهوا إلى الشاطئ .. وسرعان ما غاب جسد (مونتجمرى) ، وشعرت بشىء يضيق حول صدرى ..

- « والآن تخلصوا من باقى الأجساد .. » .

سمعت خطوات خلفى ، فرأيت الضبع - الخنزير يدنو .. كان رأسه منحنيًا وعيناه لامعتين ثابتتين على وجهى ..

تناولت المسدس من جيبى لأننى نويت أن أقتل هذا الوحش عند أية بادرة مريبة منه .. كنت أخشاه أكثر مما يخشانى .. إن استمراره فى الحياة تهديد مستمر لحياتى ..

صحت به :

- « انحن ! أدِّ التحية ! »

التمعت أسنانه .. وهتف :

- « من أنت كى .. ؟ »

هنا أطلقت الرصاص .. صرخ وراح يركض مبتعدًا ، وعرفت أننى لم أصبه .. أطلقت رصاصتين أخريين لكنه كان يجرى متلويًا على الجانبين فلم أظفر به ، وسرعان ما توارى وراء الدخان ..

صرفت الرجال الثلاثة واتجهت للشاطئ راغبًا فى أن أبقى وحدى ..

إن الشىء المخيف هنا هو أنه ما من مكان آمن على الجزيرة ، أستريح أو أنام فيه .. لقد استرددت قواى ، لكننى ما زلت واهنًا والمعاناة تجعلنى أنهار سريعًا .. فكيف سأبقى آمنًا إلى أن تجىء النجدة ؟ »

وتذكَّرت كلمات (مونتجمرى) اليائسة : « إنهم سيرتدَّون إلى طبيعتهم .. بالتأكيد سيرتدَّون .. » .. وكلمات (مورو) : « ما إن تغفل عيناى عنهم حتى يصحو الوحش داخلهم » .. وفكرت فى الخنزير - الضبع .. كنت أعرف أن حياتى رهينة بموته ..

لقد عرف هؤلاء القوم الآن أن أصحاب السياط يموتون كما يموتون هم ..

ترى ماذا يخططون لى الآن ؟ وماذا يقوله لهم الخنزير - الضبع ؟

* * *

شعرت بأحد الرجال ـ الوحوش يدنو منى ، وكنت متوترًا لذا سحبت مسدسى مهددًا .. تراجع للوراء ككلب تم زجره ، وكان فيه الكثير من الكلاب حقًا ..

وعند الظهيرة توجهت إلى عرينهم وقد أرهقنى الجوع والظمأ .. نظروا لى وهم جلوس ولم يكلف أحدهم نفسه بالنهوض .. كنت متعبًا عاجزًا عن الاعتراض وتركت الأمر يمرّ .. قلت لهم كأننى أعتذر :

ـ « أريد طعامًا .. »

قال الرجل ـ الثور دون اهتمام :

ـ « هناك طعام فى الأكواخ .. »

مررت وسطهم واتجهت إلى أحد الأكواخ المحفورة فى الحمم .. كان به بعض الفواكه شبه الفاسدة التهمتها فى جشع ، ثم غطيت فتحة الكوخ بالغصون وأدرت وجهى لها وقبضت على المسدس ، عازمًا على النوم ..

إن إرهاق الثلاثين ساعة الماضية يطالبنى بحقوقه .. على الأقل سوف يحدث المتسلل بعض الضوضاء ، وهو يزيح الغصون ، مما يعفينى من المفاجأة ..

★ ★ ★

٢١ ـ ارتداد الرجال ـ الوحوش ..

حين نهضت كان الظلام .. وكان ذراعى يؤلمنى ، وسمعت أصواتهم الخشنة تتحدث بالخارج .. كانت الأغصان على فتحة الكوخ قد انتزعت ، لكن المسدس ظل فى يدى ، وفى هلع عرفت معنى هذا ..

سمعت من يتنفس فى الظلام .. ثم شعرت بشىء ناعم دافئ رطب يمرّ فوق ذراعى ، فتقلصت يدى ..

فى همس خشن تساءلت :

ـ « من هذا ؟ »

« هذا أنا يا سيدى .. »

ـ « وماذا تريد ؟ »

ـ « يقولون إنه ما من سيد هناك ، لكنى أعرف .. أنا خادمك .. »

وعرفت أنه الرجل ـ الكلب ، وميزت الإخلاص فى صوته .. كان بوسعه أن يمزقنى وأنا نائم .. سألته عن الآخرين فقال :

ـ « إنهم مجانين .. إنهم حمقى .. يقولون إن السيد مات والآخر الذى يملك السوط مات ، والآخر الذى يمشى فى البحر هو مثلنا .. لا سيد .. لا سياط .. لا بيت آلام .. نحن نحب القانون .. لكن لا سيد ولا سياط .. كذا يقولون »

ربّت فى الظلام على رأسه ، وقلت :

ـ « هذا حسن .. »

قال :

ـ « الآن تمزقهم جميعًا .. »

ـ « نعم .. وبعد أيام كل واحد ـ عدا من تختاره أنت ـ سيُقتل »

ـ « من يرد السيد أن يقتله يقتله .. »

وغادر الكوخ وتبعته ..

مشينا فى الظلام متجاهلين الرجال ـ الوحوش المحيطين بنا ، والذين راحوا يرمقوننى فى عدوانية أو لا مبالاة .. بعضهم احتشد حول النيران وعرفت منهم الرجل ـ القرد ..

قال هذا الأخير :

ـ « السيد ميت .. منزل الآلام ذهب .. »

قلت فى ثقة :

ـ « السيد لم يمت .. منزل الآلام سيعود » .

كانوا قد بدءوا يتوجسون من ثقتى .. إن الحيوان يستطيع أن يكون خبيثًا ، لكنك تحتاج إلى إنسان كى تختلق كذبة جيدة .. وقال أحدهم :

ـ « الآخر ذو الذراع المضمّد يقول كلامًا غريبًا .. »

ـ « أؤكد لكم .. سيعود السيد وبيت الآلام .. والويل لمن يخرق القانون .. »

هنا راحوا يوجهون لى الأسئلة .. رحت أجيب بحماس شديد أرهقنى ، وخلال ساعة أقنعت أكثر هؤلاء بأننى صادق .. ازدادت ثقتى بنفسى ولم أعد أتلفت للوراء فى كل لحظة ..

عندما ظهر القمر بدءوا يتثاءبون وينسحبون للنوم .. قررت أن أبقى معهم .. لأننى سأكون أكثر أمنًا معهم جميعًا منى مع واحد فحسب منهم ..

* * *

فى النهاية بدأت أتكيف معهم .. كانت هناك مشاجرات معهم بالطبع ما زلت أحمل جروحها فى جسدى .. وآثار أسنانهم ..

لكننى - فى النهاية - ظفرت باحترامهم لبراعتى فى قذف الأحجار واستعمال الفأس ، وكان صديقى الكلب ذاعون كبير لى ..

تحاشانى الضبع - الذئب تمامًا ، وكنت دائمًا متنبهًا له ، وعرفت أنه قد تذوق الدم منذ زمن ، وعزل نفسه عن المجموعة وصار متواجدًا فى عرين مجهول بالدغل ، لكنه جعل كل ممر فى الغابة خطرًا داهمًا بالنسبة لى ..

وفى شهر (مايو) بدأت ألاحظ تغيرًا واضحًا فى لغتهم .. صاروا أقل اهتمامًا بالألفاظ وأقل ميلاً إلى الكلام . كانوا يفهمون ما يقال لهم لكنهم لا يتكلمون ..

لك أن تتخيل لغتهم الواضحة المحددة تتحول لصيحات من جديد ، وصاروا يمسكون الأشياء بطريقة خرقاء ، وصاروا يجدون عسرًا فى المشى منتصبين ، حتى كنت أجد بعضهم يمشون على أربع فى أحيان كثيرة ..

كانوا يرتدّون بسرعة ..

وبدأت قوة القانون تفقد تأثيرها ، وتحول الرجل - الكلب إلى كلب حقيقى يومًا بعد يوم .. وكسا الشعر جسده كله .

صارت الأكواخ قذرة جدًا حتى إننى تركتها وصنعت لنفسى ما يشبه الكوخ من بقايا حصن (مورو) .. كان هذا هو أكثر مكان أمنًا لأنهم لم ينسوا بيت الآلام بعد ..

من العسير أن أحكى كيف تخلوا عن ثيابهم تدريجيًا ، وكيف نما شعرهم أكثر ، وكيف صارت صداقتهم عسيرة ..

بالطبع لم يرتدوا وحوشًا عادية كالتى يراها المرء فى حدائق الحيوان .. بل كانوا خليطًا من حيوانات عدّة مع لمسة بشرية تثير الرعب من آن لآخر ..

وهكذا رحت أمضى أيامى عند الشاطئ أدعو الله أن تمرّ سفينة ما ، واعتدت إشعال النار فى مكان ظاهر .. كنت أعلق أملى على عودة (إبيكاكوانا) من جديد .. لكن شيئًا لم يظهر ..

* * *

وفى أكتوبر قررت صنع طوفى الأول ، وكان ذراعى قد شفى .. لم تكن لدى خبرة بالنجارة أو أى عمل يدوى .. لكنى تمكنت فى النهاية من صنع ما أردت ، وبرهنت على انعدام مهارة تام ، لأننى حين حاولت جرّ الطوف إلى الشاطئ تفكك إلى أجزاء ..

كان هذا حسن حظ ـ لأنه حدث قبل أن أقلع به ـ لكنه أمضّنى كثيرًا وقتها ، وجعلنى أفكر فى الانتحار ..

لكن شيئًا خطيرًا حدث وقتها ، نبهنى إلى واجب الإسراع بالفرار ، لأن كل يوم يدنينى من الهلاك مع تلك المخلوقات ..

كنت جالسًا عند الحصن ، حين شعرت بشىء ، يلمس كتفى ..

أجفلت واستدرت فوجدت حيوان (الكسلان) يقف خلفى ، وكان قد فقد القدرة نهائيًا على الكلام ..

راح يركض نحو الأشجار ثم تعلق بغصونها ـ وهذا وضع أسهل له من المشى ـ فبدأت أفهم .. إنه يريد منى أن أتبعه ..

مشيت خلفه حتى وصلت لمساحة خالية من الأشجار ..

هنا رأيت مشهدًا مفزعًا ..

كان (الساتير) راقدًا على الأرض ميتًا ، بينما الضبع ـ الذئب منحن فوقه يمزق لحمه بمخالبه ويقضمه ، ويزأر فى رضا ..

حين رآنى برزت أسنانه منذرًا ..

لم يكن خائفًا ولا خجلاً .. لقد تلاشى آخر ما فيه من لمسة بشرية ..

رفعت المسدس وصوبته نحوه .. لم يبد ميلاً للتراجع ، فصوبت ما بين عينيه وأطلقت الرصاص ، فى اللحظة التى وثب فيها نحوى .. فسقطت تحته .. لكنى أصبته كما أردت ..

أخيرًا جررت جسدى من تحته ، ورحت أرمق جسده المضطرب وأنا أرتجف .. لقد ولى هذا الخطر ، لكنه أول حلقة فى سلسلة الارتداد إلى الوحشية ..

حرقت الجسدين فى محرقة خشبية ، وأنا موقن أننى ما لم أترك الجزيرة فورًا فإن هلاكى مسألة وقت ..

فى الصباح كان الرجال ـ الوحوش يغفون ، لكن الليل يضجّ بعوائهم وزئيرهم ، وتعلمت أن أنام نهارًا حتى أحتفظ بوعيى فى الليل ..



رفعت المسدس وصوبته نحوه .. لم يبد ميلاً للتراجع ، فصوبت ما بين عينيه وأطلقت الرصاص ..

لقد نسيت الحيونات صنع النيران واستعادت خوفها منها ، لذا كانت النار خير حليف لى ..

ورحت ملهوفًا أحاول صنع طوفى الثانى مستفيدًا من أخطائى السابقة ..

★ ★ ★

جاء يوم رأيت فيه شراع سفينة نحو الجنوب ..

أشعلت حطبًا كثيرًا ، ورحت أنتظر هذا الشراع طيلة النهار ، دون أن آكل أو أشرب .. وأمضيت ليلتى هناك ..

كان قاربًا صغيرًا .. رأيته عند الفجر وعليه رجلان لا يتحركان من موضعهما .. لوّحت لهما كثيرًا فلم يلاحظانى وظلا جالسين ..

هنا كففت عن الصراخ وأرحت ذقنى على كفى وانتظرت ..

وعند الظهيرة أوقف المدّ القارب على بعد مائة ياردة غربى الحصن ..

وحين دنوت منه أدركت أن الرجلين ميتان ..

لقد ماتا منذ زمن طويل ، وتفتتت جثتاهما بمجرد أن جذبت القارب .. وكان لأحدهما شعر طويل أحمر ذكرني بقبطان الـ (إيبكاكوانا) .. وعلى أرضيته وجدت (كاسكيت) بيضاء متسخة ..

جاءت بعض حيوانات لترى ما هنالك ..

كان أحدهم هو مزيج مخيف من الدب والثور ، وكان يحرك خطمه متشممًا .. لمحت بريق أسنانهم وعيونهم فغلبني ذعر رهيب ..

فى الصباح التالى ملأت الوعاء الذى وجدته على ظهر القارب بالماء ، وقتلت أرنبين بآخر ثلاث رصاصات عندى ، ثم ملأته بالفاكهة التى جمعتها فى صبر ..

* * *

٢٢ ـ الرجل الوحيد ..

فى المساء اتجهت إلى البحر ببطء شديد ..

ركبت القارب ، وازدادت الجزيرة صغرًا .. امتدّ المحيط أمامى بلا نهاية .. وبعد ساعات كانت الشمس الجليلة تغمر البحر ببريقها ..

وأمضيت ثلاثة أيام وحدى آكل ، وأتأمل ما حدث لى ، غير راغب فى رؤية البشر من جديد ..

لقد استحال شعرى عجينة سوداء ، وثيابى أسمالاً بالية .. ولا عجب فى أن من رأونى حسبونى مخبولاً ..

وفى اليوم الثالث التقطتنى سفينة بخارية مسافرة من (أبيا) إلى (سان فرانسسكو) ، ولم يصدّق البحارة حرفًا مما حكيت ، لهذا آليت ألا أحكى عما حدث لى منذ عرفت (ليدى فين) ..

كان علىّ أن أنقذ نفسى من تهمة الجنون .. إن ذكرياتى عن القانون والبحّارين الميتين والظلام تطاردنى بلا هوادة ..

كنت دومًا غريبًا بالنسبة للبشر كما كنت غريبًا بالنسبة للوحوش .. يقولون إن الرعب مرض ، وبوسعى أن أقول إنه ـ بعد عشرة أعوام ـ ما زال رعب لا يهدأ يسكن فى عقلى ..

لم أستطع أن أقنع نفسى قط أن من ألقاهم من البشر ليسوا من القوم الوحوش ، ولربما يرتدون لطبائعهم بعد قليل ليظهروا تلك العلامة الوحشية أم تلك ..

تعرفت رجلاً صدقنى .. وهو طبيب أمراض عقلية عرف (مورو) لفترة .. ومعه بدأت أشعر بتحسن ..

لكن الذعر لم يفارقنى برغم كل شىء ..

أخشى أن يرتدّ الناس إلى وحشيتهم على نطاق أوسع ..

لقد عشت فى (لندن) غير قادر على معاشرة الناس .. كنت أسمع صوت الرجال الوحوش خلف النوافذ .. كانوا قادمين لى ، والأبواب الموصدة هى أو هى حواجز ممكنة ..

وكنت أخرج للشارع كى أطرد أوهامى ، والناس يرمقوننى .. العمال الشاحبون يسعلون حين أمرّ بهم ،

والشيوخ يثرثرون لأنفسهم وهم يمشون وحدهم ، والأطفال يلهون ..

أدخل إلى مكتبة لأجد أن الوجوه المنكبّة على الكتب ، هى وجوه وحوش صور تنتظر مرور فريسة ..

الوجوه الخالية من التعبير للناس فى القطارات والحافلات كانت تثير فزعى ، لذا كرهت السفر إلا وحدى ..

إننى حيوان تم تعذيبه ـ هو الآخر ـ فى بيت الآلام حتى اختلّ عقله ..

وأمضيت أيامًا وسط الكتب التى هى نوافذ فى حياتنا تنيرها أرواح الرجال .. كرست أيامى للقراءة وتجارب الكيمياء والليالى الصافية كرستها لدراسة علم الفلك ، حيث السلام والأمن فى قوانين الكون الأبدية ، وليست الهموم اليومية وخطايا البشر ..

وبهذا فى أمل لاينتهى ووحدة لا تزول ،تنتهى قصتى .

إدوارد برندك

هـ . ج . ويلز

١٨٩٦

[تمت بحمد الله]

٢٥٥٧
رقم الإيداع :
٩٧٧ ـ ١٦٣ ـ ٣٩٤ ـ ٥

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

جزيرة الدكتور مورو

31

سفينة غارقة ، ورجل يُدعى (بندرك) يفرّ بجلده إلى جزيرة مجهولة ، بها عالم يُدعى الدكتور (مورو) .. كل هذا جميل .. لكن خيوط الحقيقة تتضح شيئًا فشيئًا ، ونتبين أن د.(مورو) يمارس تجربة شنيعة تتحدى أى تعريف إنسانى .. تجربة لايمكن أن تصدقها مالم تقرأ هذه الرواية .



العدد القادم
عرين الدودة البيضاء

الثمن فى مصر ١٥٠ قرشًا
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم